الدكتور يوسف القرضاوي

الناس والحق

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

obeikandl.com

الطبعة السابعة

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

جميع الحقوق محفوظة

obeikandl.com

من الدستور الإلهي

فَذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ
إِلَّا الضَّلَالُ ، فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ؟

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . لقد جاءت رسل ربنا بالحق .

والصلاة والسلام على رسوله الذى بعثه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وعلى آله وصحبه أهل الحق وحزبه ، وعلى كل مَن اتبع الحق ودعا إليه إلى يوم الدين ..

وبعد ..

فهذه رسالة موضوعها « الحق » ومرجعها الأول هو القرآن الكريم ، وأسلوبها هو الحوار . فهى دراسة قرآنية عن مفهوم « الحق » وما تدل عليه هذه الكلمة فى الكتاب العزيز ، وكيف أودع الله الفطرة البَشرية ، حب الحق وطلبه ، والتوجه إليه . وبيان الوسيلة الفذة المضمونة لمعرفة الحق والاهتداء إليه . وهى : الوحى الإلهى . وبيان الصلة بين الوحى الإلَهى والعقل الإنسانى ، وماذا ترك الوحى للعقل من مجالات يعمل بها ويصول ، وبيان المرجع السماوى الوحيد الباقى للبَشر فى الأرض ليعرفوا به الحق وينصروه وهو القرآن الذى ميّزه الله بالوضوح ، والتأثير والشمول ، والخلود .

وجعله تبياناً لكل شيء . وكيف ضلّ المسلمون وذلوا حينما غفلوا عنه .

ثم بيان موقف الناس من الحق ، وأسباب إعراضهم عنه ، وكراهيتهم له ، وعداوتهم لأهله ، عن جهل وغفلة أو عن عناد وهوى . ولماذا يطلب بعض الناس الحق ولا يهتدون إليه .

ثم ماذا على الإنسان من أعباء وواجبات نحو « الحق » إذا عرفه واهتدى إليه ، وماذا ينتظره من جزاء في الدنيا والآخرة ، إذا ثبت في معركة الصراع بين الحق والباطل ، وأخيراً قيمة الحضارة السائدة اليوم وكم فيها من حق وباطل .

كل هذه القضايا الهامة تناولتها هذه الرسالة الصغيرة بأسلوب قريب كل القرب ، بسيط غاية البساطة ، بعيد عن التعقيد والتفلسف والتكلف . هو أسلوب الحوار بين شيخ مرب وتلميذ متعلم . وهو أسلوب استعمله علماؤنا من قديم كما نجد ذلك عند ابن القيم رحمه الله في محاورة بين سُنّي وقدري ، وبين قدري وجبري .

وكما رأينا ذلك حديثاً في محاورات المصلح والمقلد ، للسيد رشيد رضا ، ومحاورات الشيخ المرزوق وحيران بن الأضعف في « الجواب الإلهي عن العلم والفلسفة » للشيخ حسين الجسر ، كما استعمله ولده الشيخ نديم الجسر في كتابه القيم « قصة الإيمان بين

الدين والعلم والفلسفة » . بل إن القرآن الكريم نفسه استخدم أسلوب الحوار ليبرز به قضايا الوجود الكبرى : قضايا الألوهية والرسالة والبعث والجزاء كما نشاهد ذلك واضحاً فى عرضه لقصص الرسل مع أقوامهم .

وقد أردت بهذه الدراسة القرآنية الموجزة أن أعرِّف الشباب المثقف بالحق ، كما يهدى إليه كتابهم ، وأن أحببه إليهم ، حتى يؤمنوا به وينصروه ويكونوا من جنده وحزبه . وإنى لأحمد الله عزّ وجلّ أن كُتب لهذه الرسالة القبول فى قلوب المسلمين ، فكتب إلىّ مسلمون فى إفريقيا يطلبونها ، وقام إخواننا الأتراك بترجمتها إلى اللغة التركية . والله تعالى أسأل أن يجعلها خالصة لوجهه وأن ينفع بها كاتبها وقارئها وناشرها .

اللّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا أتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، آمين .

د . يوسف القرضاوى

* * *

الناس والحق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ :

لطالما حدثتنا عن « الحق » ، وحبَّبت إلينا العيش من أجله ، كما هوَّنت علينا الموت فى سبيله ، ولكنك علَّمتنا أن تحديد « مفاهيم » الكلمات وما تدل عليه أمر يجب أن يسبق كل حركة وكل عمل ، حتى يتضح لنا الهدف ، ولا يلتبس علينا الطريق ، فما المفهوم المحدد لكلمة « الحق » ؟

قال الأستاذ المربى - وقد أعجب بحديث تلميذه :

أحسنتَ يا بنى فيما طلبتَ .

إن كلمة « الحق » قليلة الحروف ، ولكنها كبيرة المعنى ! وقد استعملها ذوو الاختصاصات المتنوعة استعمالات شتَّى :

* استعملها رجال الفلسفة دالة على إحدى القيم العليا الثلاث : الحق ، والخير ، والجمال .

* واستعملها علماء الأخلاق فيما للإنسان على غيره ، وهو ما يقابل الواجب ، ولهذا قالوا : كل حق يقابله واجب .

* واستعملها علماء القانون فى معنى آخر ، يشمل الحق العينى ، والحق الشخصى ، حتى إن دراسة القانون بكل فروعه لتسمى دراسة « الحقوق » .

واستعمل القرآن الكريم كلمة « الحق » فيما يقابل الباطل والضلال ، قال تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إلا الضَّلَالُ ﴾ (١) .

قال الطالب :

أحسب أن المفهوم الأخير للحق هو الذي يعنينا أن نعرفه هنا ، وهو الذى يحرص كل امرىء على الانتساب إليه ، ولو لم يكن من أهله ويبرأ من مقابله - وهو الباطل - ولو كان فى الواقع من أنصاره وحزبه .

قال الأستاذ :

وهذا ما يزيد الأمر تعقيداً ، فإن سائر أهل الباطل يزعمون أنهم على الحق ، بعضهم عن جهل وغفلة ، وبعضهم عن عناد ولؤم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُواْ فِى الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (٢) . ولكنى أضع فى يديك مصباحاً يضىء لك معنى الحق .

الحق يا بنى - كما تهدى إليه الفطرة السليمة - هو الأمر الثابت الباقى ، والباطل هو الزائل المتغير . فما كان من شأنه الثبات والبقاء فهو « حق » ، وما كان من صفته التلاشى والفناء فهو « باطل » .

---

(١) يونس : ٣٢ (٢) البقرة : ١١

وإذا نظرنا إلى الواقع لم نر فى الموجودات شيئاً يتصف بالثبات والبقاء لذاته غير الخالق سبحانه . وكل مَن عداه وما عداه ، فليس وجوده لذاته ، ولا بقاؤه بنفسه ، وإنما هو موجود لغيره ، وكائن بعد أن لم يكن ، وكائن إلى أجل ، ثم تطوى صفحته !!

فالحقيقة الناصعة التى تشهد بها الفطر والعقول ، ويشهد لها كل سطر ، بل كل حرف فى كتاب الوجود : إن اللّه هو الحق ، وما دونه هو الباطل . وهذا ما أعلن عنه كتاب اللّه الحق فى غير سورة من سوره ، فقال : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ ﴾ ؟ (١) ، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) ، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (٣) .

ومن هنا قال الرسول ﷺ : « أصدق كلمة قالها شاعر ، كلمة لبيد : ألا كل شىء ما خلا اللّه باطل » (٤) .

ومَن ضل عن هذه الحقيقة اليوم ، فسوف يعرفها غداً ، يوم ينكشف الغطاء عن بصره ، فيرى الحقائق عارية مجردة من الأقنعة

---

(١) يونس : ٣٢ (٢) الحج : ٦ (٣) الحج : ٦٢

(٤) وتمام البيت فى ديوانه ص ٢٥٦ : « وكل نعيم لا محالة زائل »

الزائفة ، والألبسة المموهة : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (١) .. ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُواْ أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ (٢) .

إن حيثيات هذا الحكم تتلخص فى هذه الآية الكريمة : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٣) .

قال الطالب لأستاذه :

لقد أنرت لى السبيل بهذا المصباح ، وإن صوت الفطرة فى أعماقى لينادينى بأن الله هو الحق المبين . ولكنى أسألك سؤالاً ..

قال الأستاذ :

سل ما بدا لك ، فالعلم خزائن مفاتيحها السؤآل .

قال الفتى :

ألسنا نصف أقوالاً وأعمالاً ، وأفكاراً ومذاهب وأشياء بأنها حق ، وبأن غيرها باطل ؟ فمن أين يجىء البطلان لهذه ، والحقية لتلك ؟

قال الشيخ :

إن الأمر يا بنى يكتسب صفة الحق بقدر اتصاله بالحق المطلق -

---

(١) النور : ٢٥ (٢) القصص : ٧٥ (٣) القصص : ٨٨

الله - وانتسابه إليه ، ورضاه عنه ، ويكتسب الأمر صفة الباطل بقدر بُعده عن الله وانقطاعه عنه ، وإقفاره من رضاه .

فما كان أصله من قِبَل الله فهو حق ، وما كان من غير الله فهو باطل .

فإذا عرفت أن الله هو الحق ، فاعلم أن قوله « حق » ، وفعله « حق » ، فهو تعالى لا يقول باطلاً ، ولا يفعل باطلاً .

ولهذا كان من دعاء أولى الألباب : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ﴾ [1] .

ومن هنا رد القرآن فى إنكار وتعجيب على أولئك الذين زعموا أن هذا الخلق ليس له حكمة ، وهذه الحياة ليس وراءها غاية ، بأن هذا عبث يتنزه عنه فعل الله الحكيم ، وباطل يتعالى عنه الملك الحق : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ [2] . ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعبينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إلا بالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [3] . ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [4] .

---

(١) آل عمران : ١٩١
(٢) المؤمنون : ١١٥ - ١١٦
(٣) الدخان : ٣٨ - ٣٩
(٤) سور ص : ٢٧

فما أخبر به تعالى فى كتبه على ألسنة رسله فهو « حق » ، وما شرعه تعالي فى كتبه وعلى ألسنة رسله فهو « حق » : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ (١) .

فكل ما أخبر الله به عن عوالم الغيب ونهاية الحياة وحقائق الآخرة فهو « حق » ، يجب التصديق به ، والتسليم بصحته ووقوعه لا محالة .

ومن هنا كان وعد الله حقاً ، وكان الموت حقاً ، وقيام الساعة حقاً ، والبعث حقاً ، والحساب حقاً ، والجنة حقاً ، والنار حقاً ، فالقرآن يقول : ﴿ وكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً ﴾ (٢) ، ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّه حَقٌّ ﴾ (٣) ، ﴿ وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بالْحَقِّ ، ذَلِكَ مَا كُنتَ منْهُ تَحيدُ ﴾ (٤) ، ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ، قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ ، وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ (٥) ، ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَالَّذِينَ آمَنُواْ مُشْفِقُونَ منْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ (٦) ، ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ،

---

(١) الأنعام : ١١٥ (٢) الكهف : ٩٨ (٣) لقمان : ٣٣

(٤) سورق : ٩ (٥) يونس : ٥٣ (٦) الشورى : ١٧ - ١٨

قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا ﴾ (١) ، ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ﴾ (٢) .

هذا وكل ما شرعه الله لعباده من أحكام تنظم علاقتهم بالله ، أو علاقتهم بالكون والحياة ، أو علاقتهم بعضهم ببعض أفراداً وأسراً ، وجماعات ، فهو « حق » ، يجب الاحتكام إليه ، والإذعان له ، والتسليم بعدالته ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ (٣) ، ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ، فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ، وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (٤) .

قال الطالب :

إذا كان « الحق » من الوضوح والبساطة بالقدر الذى ذكرت ، فما بال الناس يختلفون اختلافاً كثيراً فى تحديد الطريق إلى الحق ، وتحديد المعيار الذى يزنون به « الحق » فى الأمور من الباطل ؟

قال الأستاذ الشيخ :

إن الله - يا بنى - أودع الفطرة البَشرية حب الحق وطلبه

---

(١) الأحقاف : ٣٤
(٢) الجاثية : ٢٨ - ٢٩
(٣) النساء : ١٠٥
(٤) المائدة : ٤٨

والتوجه إليه ، كما أودع العقول بذور معرفته ، ثم كمل ذلك كله بالكتب والرسالات السماوية ، لنأخذ بيد العقل فلا ينخدع ولا يضل ، ونحجب الأذى عن الفطرة فلا تنطمس ولا تنحرف ، وبذلك يجتمع الناس على كلمة سواء ، ويهتدون إلى المحجة البيضاء .

اقرأ معى قول القرآن : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ (١) .

وأظنك يا بنى ، تُسلِّم معى أن مَن أراد أن يعرف أفكار مؤلف أو مبادىء مفكر أو تعاليم مصلح ، فليطلبها مما ألَّفه من كتب وما أذاعه من أحاديث ... ونحن نقول هنا أيضاً : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ ﴾ (٢) مَن أراد أن يعرف الحق على وجهه الصحيح ، مجرداً من شطط البشر ، فليعرفه من كتب الله تعالى ورسله .

ولست أُنكر دور الفطرة البَشرية السليمة ولا دور العقل البَشرى الراشد ، فى معرفة الحق والاهتداء إليه . كلا .. فإنهما نعمتان أنعم الله بهما على الإنسان لينتفع بهما لا ليعطلهما . وهل الفطرة السوية أو العقل السديد إلا ذلك الميزان المعنوى الذى نزن به الأفكار والمعانى ، كما نزن الماديات والأجسام بالقبان ؟ ذلك

---

(١) البقرة : ٢١٣ (٢) النحل : ٦٠

الميزان الذى وهبه الله لأفراد الإنسان كما وهب الكتاب المعصوم للجماعة الإنسانية : ﴿ اللَّهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ (١) ، ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (٢) .

هذا الميزان لا بد منه بجوار الكتاب ، لأن الإنسان به يعرف حقية الكتاب وصحة النبوة ، وصدق الرسول . بل بهذا الميزان - ميزان الفطرة والعقل - يعرف ربه الذي أعطى كل شيء خَلْقه ثم هدى .

لا غنى عن هذا الميزان ، ولكن لا قيمة له أيضاً بغير الاهتداء بنور الكتاب ، ولا يستغنى عنه إلا إذا استغنى المخلوق عن الخالق ، وهو ما لا يكون !

قال الطالب :

آمنت بما تقول يا أستاذى ، ولكن - ليطمئن قلبى - أوجه إليك سؤالاً آخر زيادة فى الاستيضاح : ما دمنا خلقاً نمشى على الأرض ، فلماذا نطلب الحق من السماء ؟! ألا يُعَد ذلك حَجْراً علينا ؟! ولماذا لا نضع نحن مقاييس الحق لأنفسنا ؟

قال الأستاذ :

ليس غريباً ولا بعيداً - أيها التلميذ النجيب - أن تطلب معرفة الحق من الله . بل هذا هو المنطقى والطبيعى .

---

(١) الشورى : ١٧ (٢) الحديد : ٢٥

* إذا كان الحق هو معرفة حقائق الأشياء ، وأسرار الوجود ، وغايات الحياة ، فالمنطقى أن نطلبها من خالق الأشياء ومدبر الوجود ، وواهب الحياة .

* وإذا كان الحق هو دستور العدالة الذى يفصل بين الناس ويوزع الحقوق والواجبات بالقسطاس ، فيعطى كل فرد ، أو كل أسرة ، أو جماعة ، ما له ، ويطالبه بما عليه ، فليس مصدر هذا الحق إلا رب الناس ، الذى خلق فسوى ، والذى قدَّر فهدى ، والذى يعلم ما يحتاج إليه عباده وما يصلحهم أو يفسدهم ، وهم جميعاً لديه سواء ، هو ربهم ، وهم عباده ، فلا يتحيز لفرد ولا لأسرة ، ولا لطبقة ولا لأمة ولا لجنس ولا لأهل إقليم من الأقاليم أو عصر من الأعصار .

* وإذا كان الحق هو قانون الفضيلة التى تحكم الغرائز ، وتضبط السلوك ، وتسمو بالنفس ، وتهذب الفطرة ، وترقى بأخلاق الفرد والمجتمع ، فالحق فى هذا يُعرف من خالق النفس وفاطر الفطرة ، العالم بما يزكيها وما يدسيها : ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ** ﴾ (١) ، ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ (٢) .

---

(١) البقرة : ٢٢٠ (٢) الملك : ١٤

إنَّ أدرى الناس بإصلاح جهاز ما ، هو صانعه ومنشئه ، واللّه جلّ شأنه هو صانع الإنسان ، فلماذا يُطلب صلاح الإنسان من عند غير اللّه رب الإنسان ؟! : ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (١) .

وفضلاً عن علمه تعالى بمَن خلق ، فهو أرحم بعباده من آبائهم وأمهاتهم ، بل أبر بهم من أنفسهم : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) .

قال الفتى :

ولكن ماذا ترك الكتاب للميزان ؟ وبعبارة أخرى ماذا ترك الوحى للعقل ؟!

قال الأستاذ الشيخ :

لقد ترك الوحى للعقل أموراً كثيرة فى مجالات متعددة :

(أ) ترك للعقل فى مجال العقيدة أن يهتدى إلى أعظم حقيقتين فى هذا الوجود :

الحقيقة الأولى : وجود اللّه ووحدانيته - فوجود اللّه - كما تهدى إليه الفطرة السليمة - يقتضيه كذلك النظر الصحيح ،

---

(١) الجاثية : ٣٦ (٢) الطور : ٢٨ (٣) البقرة : ١٤٣ ، الحج : ٦٥

والعقل الصريح . ولا غرو إذا أقام القرآن الأدلة من الكون ومن النفس على وجود الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآيَاتٍ لأُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، بَل لا يُوقِنُونَ ﴾ (٢) .

ويتبع ذلك الأدلة العقلية التى ذكرها القرآن على وحدانية الله بقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ (٣) .

وفى موضع آخر يقول : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (٤) .

الحقيقة الثانية : ثبوت الوحى والنبوة والرسالة . فالعقل هو

---

(١) آل عمران : ١٩٠ (٢) الطور : ٣٥ - ٣٦

(٣) الأنبياء : ٢٢ - ٢٤ (٤) المؤمنون : ٩١

الذى يثبت إمكان ذلك ووقوعه بالفعل ، وأن هذا الشخص المعين رسول من عند الله . العقل هو الحَكَم الأول والأخير فى هذه القضية ، ولا مدخل هنا للاستدلال بالنقل ونصوص الوحى ؛ إذ كيف يستدل بما لم يثبت بعد ؟ ولهذا قال علماء الإسلام : إن العقل أساس النقل ، ذلك أن العقل - بعد اقتناعه بوجوده تعالى وكماله سبحانه - يعلم أن من تمام حكمة الحكيم ورحمة الرحيم ألا يترك عباده سدى ، وألا يدعهم فى بحر لجى من الجهالة والعمى والغى ، وهو قادر على أن يهديهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور عن طريق تبليغه عنه .

والعقل بعد أن يعلم ذلك - لا يسلّم لكل مَن ادعى أنه رسول من الله ، بل يطالبه بما يثبت صحة دعواه وأنه لا يمثل نفسه ، وإنما يمثل إرادة الله الذى أرسله ، يطالبه بالآية المعجزة التى لا يقدر عليها إلا الله تعالى .

والعقل هو الذى يميز بين الآيات المعجزة الحقيقية التى لا تظهر إلا على أيدى رسل الله حقاً وبين مظاهر الخفة والشعوذة التى تظهر على أيدى السحرة والدجالين .

والعقل هو الذى يعرف وجه دلالة المعجزة الخارقة على صدق مَن أظهرها الله على يديه ، وأنها تصديق من الله له فى دعواه ، فهى بمثابة قوله : « صدق عبدى فيما يبلّغ عنى » . والله تعالى لا يصدق

الكاذب ، لأن تصديق الكاذب كذب - والكذب محال على الله تعالي . كل هذه مقدمات عقلية محض ولولاها ما ثبت الوحى أصلاً ، ولا قام الدين رأساً .

والعقل ينظر فى سيرة كل شخص يدّعى الرسالة ويتأمل فى صفاته وأخلاقه ، وأقواله وأعماله ، ومدخله ومخرجه ، ليعرف منها : هل هو أهل لاصطفاء الله أم ليس كذلك فيرفضه ويعرض عنه . ومن أجل ذلك احتكم القرآن فى إثبات صدق رسالة محمد ﷺ إلى العقول المنكرة وحدها ، فقال فى صرامة ووضوح : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ، أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ، مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (١) .

وقال يخاطب الرسول : ﴿ قُلْ لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ (٢) عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

(ب) وترك للعقل فى مجال التشريع أن يجول ويصول فى فهم النصوص ، فيفرّع على الأصول ، ويقيس على الفروع ، ويستنبط الأحكام ، ويكيّف الوقائع ، ويرعى القواعد فى جلب المصالح ،

---

(١) سبأ : ٤٦ (٢) أى القرآن . (٣) يونس : ١٦

ودرء المفاسد ورفع الحَرَج ، وتحقيق اليُسر وتقدير الضرورات بقدرها ، واعتبار العُرْف ، ورعاية ظروف الزمان والمكان .

ولا عجب بعد أن اختلفت المشارب ، وتعددت المذاهب ، وتنوعت الأقوال ، وخلف لنا العقل الإسلامى فى ضوء الوحى ، ثروة فقهية طائلة ، لها مكانها الرفيع فى تراث الفقه العالمى

(جـ) وترك للعقل فى ميدان الأخلاق أن يصدر حكمه وفتواه فى كثير من الأعمال ، التى يلتبس فيها الخير بالشر ، ويشتبه الحلال بالحرام ، ولم يغفل شأنه - بجانب الوحى - كمصدر للإلزام الأدبى ، ومقياس للحكم الخُلُقى .

ولا أجد مَن وضَّح هذه النقطة مثل أستاذنا العلامة الشيخ الدكتور محمد عبد اللّه دراز فى رسالته القيمة « كلمات فى مبادىء علم الأخلاق » قال :

« يفخر الحكماءُ بأنهم اكتشفوا للإلزام الأدبى مصدراً آخر ، غير الوحى السماوى ، ذلك هو النور العقلى ، أو الإحساس الأخلاقى ، الذى ينطوى عليه كل قلب إنسانى . ألا فليعلموا أنهم لم يأتوا بجديد غريب عن الإسلام . فالقانون الإسلامى فى رجوعه إلى العقل السليم والوجدان النبيل ، يرجع إليهما لا باعتبار أنهما شهيدان له فحسب ، يؤيدان حكمه ويشفعان له عند المخاطبين كما بيَّنا آنفاً ، بل إنه يقلدهما مقاليد الحكم ، ويخولهما حق الأمر والنهى فى أطوار ثلاثة : قبل ورود الشرع ، وفى أثناء نزول الشرع ، وبعد انتهائه وتمامه .

أما قبل الشرع فإن القرآن يقرر فى أصرح عبارة أن النفوس كلها قد منحت بفطرتها قوة التمييز بين الخير والشر ، والعدل والظلم ، والتقوى والفجور : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (١) ، ﴿ بَلِ الإنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ (٢) . ثم لا يكتفى بأن يجعل هذه البصيرة قوة كاشفة معرِّفة ، بل يجعلها آمرة ناهية ، وينعى على مَن يخالفها بأنه من أهل الضلال والطغيان : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا ، أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ (٣) هذه القضية المنفصلة لا تدع مجالاً للشك فى وجوب الخضوع لأوامر الأحلام والعقول ، متى اتضح أمامها طريق الحق والخير . وكذلك يقول صاحب الرسالة الباهرة صلوات الله عليه : « إذ أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه » .

إن الإسلام يقرر للعقل سلطاناً أدبياً بالمعنى الإنسانى الذى شرحناه آنفاً . وهو المعنى الذى زعم علماء أوروبا أنهم اكتشفوه فى المذاهب الفلسفية خاصة . هذا السلطان الأدبى الذي يسميه الفلاسفة « سلطان الضمير » يعترف الإسلام به على استقلاله وكماله فى الفترة التى تسبق قيام الشريعة ووصولها إلى مَن وجهت إليه .

---

(١) الشمس : ٧ - ٨ (٢) القيامة : ١٤ - ١٥ (٣) الطور : ٣٢

يبقى البحث فى نظرة الإسلام إلى هذا السلطان العقلى ، فى أثناء نزول الشريعة السماوية وبعد تمامها : هل متى نزلت الشريعة وبلغت أهلها أصبح أمرها ناسخاً لأحكام العقل وأوامره ، كما يبطل التيمُّم بحضور الماء ؟

كلا : إن النور لا ينسخ النور ، ولكنه :

إما : أن يؤكده ويؤيده .

وإما : أن يغذيه ويرفده .

وإما : أن يكمله ويزيده .

وتفصيل ذلك أن شئون الإنسان على ثلاثة أضرب :

منها : ما للعقل فيه مجال واضح ، وحكم حاسم ، وهو الأصول التى لا تتعارض فيها الأنظار ولا يختلف فيها اثنان ، كحُسن الصدق النافع ، وقبح الكذب الضار ، ونبل الإحسان فى ردّ الإساءة ، ولؤم الإساءة فى جزاء الإحسان .. فيجىءُ الشرع فى هذه المواضع مقرراً لحكم الفطرة ومؤكداً .

ومنها : ما للعقل فيه نور ضئيل تغشاه الظلال ، وتخالطه الأوهام وهو مواضع الشبهات العقلية كالخمر والربا والصدق الضار والكذب النافع واستبقاء الحياة المعذبة مع اليأس ، والتضحية بها فى سبيل الواجب مع القدرة على حفظها .. فهنا يجئُ الشرع إمداداً لنور العقل ، بترجيح جانب الحكمة والرشد فيه ، وتصحيح أخطاء الوهم التى تخالطه وتغشاه .

ومنها : ما لا مدخل للعقول فيه بإطلاق ، كتفصيل أنواع العبادات وكيفياتها ومقاديرها .. فيكون ورود الوحى بها مكملاً لما فات العقل إدراكه ، ماحياً للظلمة التى تركها وراء حدوده . وهكذا يكون للفطريين الذين لا يتبعون إلا شريعة العقل ، نور واحد ، ويكون لأتباع الشرائع السماوية نوران اثنان ، كما قال سبحانه : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ (١) .

ولا تحسبن أن نور الشريعة فيما لم يهتد إليه العقل بمفرده قد أصبح مستغنياً عن نور الفطرة جملة ، كلا ، فإنه لا يزال فى أشد الحاجة إلى رفده وعضده ، من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : أن الشرع لا يزال يستند إليه عند مطالبته للمؤمنين بأداء واجباتهم الشرعية ، لا باعتبار أنها أوامر إلهية فحسب ، بل باعتبار أنها أصبحت أوامر أخلاقية بعد أن سبق تعهدهم بها تعهداً كلياً عاماً ، بمقتضى عقد الإيمان الذى ينطوى على التزام السمع والطاعة . ألا ترى إلى قوله سبحانه : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) النور : ٣٥ (٢) المائدة : ٧ (٣) الحديد : ٨

الوجه الثانى : أن أوامر الشريعة فى معظم شأنها أوامر عامة كلية ، يكل الشرع تفصيلها وتحديدها إلى تقدير الوجدان الخلقى ، الذى أودعه اللّه فى كل نفس ، وفى كل جماعة بَشرية وكثيراً ما يصرِّح القرآن بتفويض هذا الوجدان الشخصى أو الجَماعى فى تحديد مقادير الحقوق والواجبات وأساليبها : ﴿ مِّمن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ (١) ، ﴿ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٢) ، ﴿ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٣) .

الوجه الثالث - وهو أعم وأدق - : أن الإسلام لا يطلب ، ولا يرضى ، أن تنفذ أوامره تنفيذاً آلياً ، خضوعاً لصولة حكمه ، بل لا بد قبل كل شىء أن تسرى أوامره إلى أعماق الضمير ، حتى يتشربها القلب ، ثم تفيض عنه بعد أن تكون قد تحولت فيه إلى أوامر ذاتية انبعاثية .. ذلك أن أول خطوة فى امتثال الواجب هى الإيمان بوجوبه وعدالته ، والخطوة التى تليها هى أن يُحمل هذا الإلزام إلى النفس على كف الضمير ، مشفوعاً بصوت منبعث من أعماقه ، يناديها : « أيتها النفس .. إن اللّه يأمرك أن تفعلى ، وأنا آمرك أن تطيعى أمره ، فإنه حق وعدل ، وإنه لا خيرة لك فى رده » . فإن لم ينبعث من الأعماق هذا التبليغ ، ولم يرتفع فيها هذا الصوت السماوى ، كان العمل كله هباءً عند اللّه ، وفى نظر قانون الأخلاق .

---

(١) البقرة : ٢٨٢ (٢) البقرة : ٢٣٣ (٣) البقرة : ٢٣٦

القلب - أو الضمير - إذاً هو بريد الشرع ، الذى لا سبيل إلى الامتثال إلا عن طريقه . وكفى بهذا رفعاً لمكانته فى غضون أحكام الشريعة .

وبعد .. فإن الشريعة نفسها ، بعد أن بيَّنت الحلال الصريح ، والحرام الصريح ، تركت المنطقة التى تختلط فيها الأوصاف ، ويشتبه فيها الحكم وفوّضت لكل امرىء أن يستفتى فيها قلبه ، ويتحرى فيها طمأنينة نفسه ، أخذاً بالأحوط والأسلم . هكذا قضى الرسول الحكيم حيث يقول : « الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما أُمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمَن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعِرْضه ودينه » .

ويقول : « استفت قلبك واستفت نفسك . البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

وأخيراً .. فإن سلطان الضمير فى نفس الإسلام لا يقف عند هذا الحد ، ولا ينتهى بانتهاء هذه الحياة ، بل إن له دوراً هاماً عند المحاسبة فى دار الجزاء ، حيث يتقدم بين يدى فصل القضاء ، ويصدر حكمه على صاحبه قبل أن يصدر عليه الحكم الأعلى . اقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى

عُنُقِه ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ (١) .

(د) ثم ترك الوحى للعقل بعد ذلك أن يجول فى آفاق هذا الكون العريض ما شاء ، صاعداً إلى الأفلاك وهابطاً إلى الأرض ، ومتأملاً فى النفس : ﴿ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٢) . ﴿ وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (٣) .

ترك له أن يكتشف من ظواهر هذا الكون ما استطاع ، وأن يسخِّر من قواه ما قدر عليه ، فكل ما فيه سخَّره اللّه لمنفعته : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤) .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ (٥) .

(هـ) ترك له أن يبتكر ويخترع فى وسائل الحياة وأمور الدنيا

---

(١) الإسراء : ١٣ - ١٤ (٢) يونس : ١٠١ (٣) الذاريات : ٢٠ - ٢١
(٤) الجاثية : ١٣ (٥) إبراهيم : ٣٢ - ٣٤

ما شاء ، ما دام ملتزماً حدود الحق والعدل : « أنتم أعلَمُ بشئون دنياكم » ، ﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

(و) ترك للعقل أن يستفيد من تجارب الآخرين ، وينتفع بتراث السابقين ، ومعارف اللاحقين : ﴿ فَاعْتَبِرُواْ يَا أُوْلِى الأَبْصَارِ ﴾ (٢) .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ (٣) .

﴿ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤) .

﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ (٥) . « اطلب العلم ولو بالصين » ، « الحكمة ضالة المؤن ، أنّى وجدها فهو أحق بها » .

قال الطالب :

ما أجمل وأروع ما قلتَ يا أستاذ ، ولكن فى نفسى شيئاً لم يزل

---

(١) القصص : ٧٧ (٢) الحشر : ٢ (٣) الحج : ٤٦
(٤) الأحقاف : ٤ (٥) النحل : ٤٣ ، والأنبياء : ٧

يحيك فيها .. ألم يكرم الله الإنسان بالعقل ؟ فلماذا لم يدع له المجال ليبحث عن الحق ، ويهتدى إليه بنفسه ؟

قال الأستاذ - وكأنه غضب لهذا السؤال :

لقد عدتَ إلى سؤالك القديم من جديد فى صيغة أخرى .

بلى .. إنه تعالى كرَّم الإنسان بالعقل ، وفرض عليه أن ينظر ويتفكر فى نفسه ، وفى السموات والأرض من حوله . كيف لا ، وكتابه الكريم يقول : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (١) . ﴿ أَوَ لَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ (٢) . ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِى أَنفُسِهِم ، مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (٣) ، ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ، أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ (٤) .

وهو الذى يختم كثيراً من آياته بمثل هذه الفواصل : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (٥) ، ﴿ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٦) ، ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٧) ، ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

---

(١) الذاريات : ٢١ (٢) الأعراف : ١٨٥ (٣) الروم : ٨
(٤) سبأ : ٤٦ (٥) البقرة : ٤٤ (٦) الأنعام : ٥٠
(٧) الرعد : ٣

يَعْقِلُونَ ﴾ (١) ، ﴿ لآيَاتٍ لأُوْلِى الألْبَاب ﴾ (٢) ، ﴿ لَعِبْرَةً لأُوْلِى الأَبْصَارِ ﴾ (٣) ، ﴿ لآيَاتٍ لأُوْلِى النُّهَى ﴾ (٤) .

ولكن الحق سبحانه - بحكمته ورحمته - لم يدع عقل الإنسان وحده ، فيما يصعب عيه أن يعرفه أو يحسم فيه برأى قاطع وقول جامع .

إن الحق المطلق يا بنى ، لا يمكن معرفته عن طريق العقل وحده بمعزل عن هداية الله ، لأن العقل محدود بحدود زمانه وبيئته ومدى ذكائه ، ومبلغ ثقافته .

كما أن عقول الناس تختلف باختلاف الأعصار والأمصار . وكم من أمر يُعَد فضيلة لدى أمة هو من أرذل الرذائل لدى غيرها . وكم أمر يعده عصر من الأعصار حقاً صراحاً ، يجىءُ عصر فيعتبره باطلاً صرفاً .

بل إن عقل الشخص الواحد ليختلف باختلاف أطوار عمره وتغير تجاربه ، وتقلب الأحوال الطارئة عليه .

هناك بعد ذلك كله الأهواء والميول والنزعات الشخصية والأسرية والإقليمية والقومية ، التى تغلب على عقل الإنسان ، واعياً حيناً ، وغير واعٍ أحياناً . وتؤثر فى حكمه على الأشياء والأشخاص والأعمال والقيم ، شاء أم أبى .

---

(١) النحل : ١٢
(٢) آل عمران : ١٩٠
(٣) آل عمران : ١٣
(٤) طه : ٥٤

فأين العقل الإنسانى الذى يعرف منه الحق المجرد ؟ عقل أى فرد أو أى جماعة ؟ وفى أى بلد أو فى أى عصر ؟! ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ (١) .

لنضرب مثلاً بفلاسفة الأخلاق ، وما اتخذوا من مقياس لفلسفتهم الخُلُقية ، كيف اختلفوا وتناقضوا ؟

فمنهم مَن جعل مقياسه اللذة .

ومنهم مَن ذهب إلى المنفعة .

ومنهم مَن آمن بالواجب .

ومنهم مَن اتجه إلى القوة .

ومنهم مَن غالى فى العقل .

ومنهم مَن تطرف فى العاطفة .

ومنهم مَن آمن بالمادة وحدها .

ومنهم مَن كفر إلا بالروح .

ومنهم مَن قدَّس حرية الفرد .

ومنهم مَن قدَّس مصلحة المجتمع .

ومنهم مَن اهتم بالواقع .

ومنهم مَن جنح إلى المثالية .

---

(١) المؤمنون : ٧١

obeikandl.com

فهل يمكن أن يخرج الإنسان من أمواج هذه الفلسفات المتعارضة ، وعباب هذه المذاهب المتناقضة ، إلا بالشك والبلبلة والحيرة التى وصفها أحد المتفلسفين قديماً فقال وأحسن :

لقد طفتُ فى تلك المعاهد كلها وسرُحت طرفى بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كفَّ حائـــرٍ على ذقنٍ .. أو قارعاً سنَّ نادم

إن العقل وحده إذن لا يكفى فى هداية الإنسان إلى الحق ، فلا بد له من معين يأخذ بيده ، ويخرجه من المتاهات ، وهذه مهمة النبوة . ومن هنا كانت رسالات الله وكتبه تترى وتتلاحق لهداية البَشر : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (١) ، ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (٢) .

قد يكفى العقل فى الاهتداء إلى الفروع والتطبيقات والوسائل . أما الأصول والمبادىء والغايات ، فلا بد فيها من كلمة السماء ، تؤخذ من كتب السماء .

ولا تنس أن العقل هنا هو الذى يفهم وحى الله وكتبه ، ويراقب تنفيذها ، والاستقامة عليها ، أو الانحراف عنها ، فدوره هنا لا يُنكر .

ولكن المصدر الذى يؤخذ منه الحق بأمان واطمئنان لا بد أن يكون سماوياً إلهياً .

---

(١) الرعد : ٧ (٢) فاطر : ٢٤

قال الطالب :

سلّمتُ بما تقول فى الأمور النظرية والعقائدية ، ولكن هناك أمور عملية تتعلق بحياة البَشر ، وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، وفى استطاعتهم أن يعرفوا وجه الحق والسداد فيها بمحاولاتهم وتجاربهم البَشرية ، فلماذا قيّدهم الوحى الإلٰهى بنصوص تشريعية تُفرض عليهم من فوقهم ، ولا تنبعث من داخلهم ؟

قال الأستاذ :

نعم ، هناك أمور عملية قد يهتدى الإنسان فيها إلى الحق بالمحاولة والتجربة التى تكشف له أخطاءه ، وتميط اللثام عن جوانب كانت خافية عليه ، غشاها الجهل أو الغفلة أو الهوى . ولكن الإنسانية - حتى تصل إلى هذه النتيجة - تكون قد ضحّت بأجيال لا حصر لها ، تهلك وتذهب ضحية لمن يأتى بعدها ، ولا تكسب هى شيئاً . أفليس الأوفق بحكمة العليم الحكيم ، ورحمة الرحمن الرحيم ، الذى أحاط بكل شىء علماً ، والذى يعلم المفسد من المصلح ، أن يريح عباده من عناء التجربة فى أهم أمور حياتهم ، بما ينظم علاقاتهم ، ويحفظ عليهم دينهم ودنياهم ، ويصون دماءهم وأعراضهم وأموالهم وعقولهم وأخلاقهم ؟ ألسنا نرى أنْ من واجب الأب الذى صقلته التجربة ، وعلّمته الحياة ، وأدبه الليل والنهار ، أن يعطى أبناءه خلاصة تجربته ، وثمرة معرفته بالحياة والأحياء ؟ أوَ ليس اللّٰه - جلّ شأنه - أبر بالناس

من آبائهم ، بل من أنفسهم ؟ فلماذا ننكر عليه سبحانه أن يُعلّم عباده ما لم يكونوا يعلمونه إلا بعد تجارب مريرة ينفقون فيها الغالى الكثير فى قرون يعلم الله كم يكون عددها وماذا تكون نتيجتها ، على أن الإنسان قد يهتدى بالتجربة إلى معرفة الحق فى أمر ما ، كأن يعرف بالتجربة مثلاً أضرار التعامل بالربا ، أو شرب الخمر ، أو لعب الميسر ، أو إطلاق العنان للغريزة الجنسية ، أو حرمان الإناث من الميراث ، أو اتخاذ الأدعياء أبناء (نظام التبنى) أو تفضيل صاحب البَشرة البيضاء على صاحب البَشرة السوداء أو السمراء (التمييز العنصرى) .. إلخ . ومع ذلك قد لا يجد الإنسان الشجاعة الكافية التى تلزمه باتباع الحق فى هذه القضايا بنصوص تشريعية ملزمة ، يتقيد المجتمع بها ولا يتعدى حدودها . وتقوم عقبات شتّى دون ذلك ، كأن تكون السُلطة التشريعية فى أيدى طبقات يهمها مثلاً بقاء الربا أو الخمر أو الميسر ... إلخ ، لأنها تكسب وتنتفع مباشرة من جرّاء ذلك ، أو لأنها تتملق مَن ينتفعون بذلك ، أو لأنها تسارع فى أهواء الجماهير الغافلة وتسترضيها ولو بما يضرها ويدمرها . فهى مع هذه الجماهير كالتاجر مع عملائه ، همه أن يجلب لهم كل ما يشتهون ما دام يدر عليه ربحاً . دون النظر إلى مضرته عليهم أو عدمها . لا كالطبيب الناصح الذى يمنع مريضه من أحب الأشياء إليه إذا كان فيه ما يؤذيه .. أو يؤخر عليه حلول العافية .

وهناك مثلان واضحان يدلان على ما نقول :

أما أولهما .. فإن الولايات المتحدة الأمريكية قد اقتنع أهل الحل والعقد فيها فى مرحلة من تاريخها الحديث بمساوىء الخمر وما تجلبه من كوارث وأضرار مادية وأدبية بالأمة ، فقرروا تحريمها بقانون ، وصدر القانون فعلاً ، وأنفقت عشرات الملايين من الدولارات فى الدعاية لقانون التحريم ، ولكن أهواء المدمنين ، ومصالح المنتفعين بإباحة الخمور من زُرّاع وصُنّاع وتُجّار ، غلبت على حكمة العقلاء الذين نادوا بالتحريم وكان الإفلاس والفشل ، وإلغاء قانون التحريم ، لا اقتناعاً بفائدة أم الخبائث ، بل عجزاً واستخداءً أمام الرغبات الجامحة والأهواء المضلة عن سواء السبيل .

وأما المثل الثانى .. ففى روسيا ، وذلك أن النظرية الشيوعية تحرِّم « الربا » والتعامل به ، ومع هذا فشلت روسيا الشيوعية فى احترام هذا المبدأ والتزامه . وأباحت لرعياها فى الداخل إيداع الأموال بالربا . كما أباحت - بالنسبة للعلاقات الخارجية - إقراض الآخرين بالربا .

إنّ الضعف الإنسانى كثيراً ما يحول بين الإنسان وبين انتفاعه بتجاربه ، لهذا كان فى حاجة إلى سُلطة عليا تلزمه بما يعجز هو عن إلزام نفسه به . ولن تكون هذه السُلطة إلا سُلطة رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس . لهذا كان لا بد من الرجوع إلى كلمة السماء ، ورسالة السماء . ولا يُترك العقل وحده فى هذا الميدان .

قال الطالب :

جزاك اللّه خيراً ... لقد اطمأن قلبى ... وازددتُ إيماناً مع إيمانى !

ولكنى سمعتك تتحدث كثيراً عن كتب اللّه ورسالات السماء ، فهل أفهم من ذلك أن كل هذه الرسالات سواء ؟! وأننا نستطيع أن نأخذ الحق من أسفار العهد القديم (التوراة وملحقاتها) وأسفار العهد الجديد (الأناجيل الأربعة) كما نأخذه من القرآن ؟!

قال الأستاذ :

إن رسالات اللّه واحدة فى أصولها ، فكلها يدعو إلى توحيد اللّه ، وتزكية النفس ، وإقامة العدل ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾ (١) . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) ، ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (٣) .

ومن هنا قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ (٤) .

---

(١) النحل : ٣٦ (٢) الأنبياء : ٢٥

(٣) الحديد : ٢٥ (٤) الشورى : ١٣

وقد أثنى القرآن على كتب الله جميعاً ، وجعل الإيمان بها جزءاً من إيمان المسلم : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ من رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (١) .

وقال تعالى فى شأن التوراة : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ ﴾ (٢) ، ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

وقال فى شأن الإنجيل : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤) .

غير أن هذه الكتب لما كانت منزلة لفترة خاصة من الزمن . ولمجموعة خاصة من البَشر ، ولبيئة محدودة من الأرض ، لم يضمن الله البقاء والحفظ لها ، كما ضمن ذلك للقرآن : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٥) .

فلا عجب إن هبَّت عليها عواصف التحريف أو النسيان أو الضياع .. حتى أصبحنا نقرأ عن أنبياء الله ورسله فى تلك

---

(١) البقرة : ٢٨٥ (٢) المائدة : ٤٤ (٣) الأنعام : ١٥٤
(٤) المائدة : ٤٦ (٥) الحجر : ٩

الأسفار أنهم ارتكبوا الموبقات ، وزنوا وشربوا الخمور ، بل نقرأ عن الله تعالى شأنه فلا نجده إلا إلهاً يصارعه إنسان . فيُصرع ، إلهاً يُصلب ابنه على مرأى منه ولا يصنع شيئاً ، أو هو - كما قال أحد الغربيين - إلَه انهزم أمام خبث الإنسان !!!

بل إننا نبحث عن الإنجيل الذى أنزله الله على المسيح عيسى فلا نعثر عليه ، وإنما نجد سِيَراً كتبها بعده تلاميذه ، أو تلاميذ تلاميذه ، متضمنة بعض أقواله ، ومع هذا فهناك حلقات مفقودة فى أسانيد وصولها إلى الناس بعد تأليفها ، بحيث لا يُعرف أصلها العبرى ، ولا مَن ترجمها ولا كيف ترجمها !! ومع أن الأناجيل الأربعة المعترف بها الآن لدى المسيحيين انتخبت من بين عشرات الأناجيل الأخرى التى رفضت الكنيسة أن تعترف بها ، والتى لا يزال فى بعضها البشارة الصريحة بالرسول محمد كما فى إنجيل « برنابا » - أقول مع ذلك كله فلم يزل فى الأناجيل الرسمية الكثير من التعارض والاختلاف والخلل والاضطراب .

لا أجحد أن فى هذه الكتب بقايا من الحق ، بَيْد أنه مشوب بكثير من الباطل الذى يطمس معالمه ، ويضيع النفع والاهتداء به .

قال الفتى معجباً :

فما المرجع المضمون إذاً لمعرفة الحق والاهتداء به ؟!

قال الأستاذ :

ليس يا بنى فى الوجود كله إلا مرجع سماوى واحد مضمون مائة

فى المائة ، ذلك هو القرآن الكريم . إنه : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (١) .

إنه الكتاب الذى تحدى البَشر أن يأتوا بمثله أو بعشر سور منه أو بسورة مثله ، فغُلبوا وانقطعوا وحقت عليهم كلمة الله : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٢) .

إنه الكتاب الذى سلم من التحريف والتبديل والنسيان ، ولم يزل منذ أنزله الله محفوظاً فى الصدور متلواً بالألسنة ، مكتوباً فى المصاحف ، يحفظه الألوف وعشرات الألوف من رجال المسلمين ونسائهم ، بل من صبيانهم وفتياتهم .

لا يستطيع أحد أن يُغيِّر منه آية أو يُعدِّل منه كلمة أو حرفاً : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٣) .

هذا الكتاب هو المصدر الفذ لمعرفة الحق ، كما يريده الله ، وكما يجب لخلقه أن يعرفوه ويتبعوه : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ (٤) ، ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

---

(١) هود : ١
(٢) الإسراء : ٨٨
(٣) فصلت : ٤١ - ٤٢
(٤) الإسراء : ١٠٥

لتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [١] ، ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ، وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [٢] .

إن الحق - فى أجمل صوره وأعمق معانيه - يتجلى فى هذا الكتاب الإلَهى ، الذي أودع اللّه فيه نبأ مَن قبلنا ، وخبر ما بعدنا ، وحكم ما بيننا . وضمّنه من جواهر الحِكَم ، وجوامع الكلم ، وروائع العبَر ، ودقائق المعانى ، وأسرار التشريع ، وحقائق الوجود ، وآيات البيان ، وبيِّنات الهدى والفرقان ، ما ينير العقول ، ويشفى الصدور ، ويزكى الأنفس ، ويصلح الحياة ، ويهدى الأفراد والجماعات إلى أقوم سبيل .

لقد أبصر الحق الناصع فى هذا الكتاب ، وشهد به كل ذى فطرة سليمة من الدنس ، وكل ذى بصيرة برئت من العمى : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ [٣] .

شهد بحقيَّة هذا الكتاب أُولو العلم والإنصاف من أهل الكتاب ، كما قال اللّه تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [٤] ، ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ

---

(١) النساء : ١٠٥ (٢) الرعد : ١
(٣) الحج : ٤٦ (٤) الأنعام : ١١٤

الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (١) .

شهد بحقيَّته النصارى الذين حدَّث اللّه عنهم فقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢) .

بل شهد بحقيَّته الجن الذين استمعوه فـ : ﴿ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُواْ يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) .

بل شهد بحقيَّته المشركون أنفسهم - رغم عنادهم وكفرهم به وبمن أنزل عليه . فقالوا : إنَّ له لحلاوة ، وإنَّ عليه لطلاوة ، وإنه ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه .

هذا القرآن حق ، لأنه كلام اللّه الحق ، وهو حق لأنه خالد باق لا يزول ولا يتبدل .

---

(١) سبأ : ٦ (٢) المائدة : ٨٣ - ٨٤ (٣) الأحقاف : ٢٩ - ٣٠

وهو حق ، لأنه يهدى إلى الحق المطلق ، البرىء من قصور العقل الإنسانى ، وانحراف الهوى البَشرى .

هو يهدى إلى الحق ، لأنه يهدى إلى اللّه وإلى صراط مستقيم .

وهو يهدى إلى الحق ، لأنه يهدى إلى الحقائق الثابتة التى تحل الغاز الوجود ، وتبين للإنسان مبدأه ومصيره .

وهو يهدى إلى الحق ، لأنه يهدى إلى أفضل الغايات وأقوم السبل .

وهو يهدى إلى الحق ، لأنه يهدى إلى القِيَم الخالدة والفضائل الأصيلة ، التى تستقر بها الحياة وتنظم بها المعاملة ويستقيم بها ميزان الخُلُق والسلوك .

وهو يهدى إلى الحق ، لأنه يهدى إلى العدل فيما للإنسان على غيره ، وفيما عليه لغيره ، دون غلو ولا تقصير ، فلا يضغط على الفرد لحساب المجتمع ، ولا يطغى على المجتمع لمصلحة الفرد ، ولا يظلم الروح من أجل شهوات الجسد ، ولا يعذب الجسم طلباً لأشواق الروح ، فللبدن حق ، وللعقل حق ، وللروح حق ، وللرجل حق ، وللمرأة حق ، وللمجتمع حق ، وللّه قبل ذلك كله حق . وصدق اللّه العظيم : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (١) .

---

(١) الإسراء : ٩

هذا الكتاب هو كلمة الله الأخيرة للبَشر ، فليس بعده كتاب . كما أن الرسول المنزّل عليه ليس من بعده رسول . لهذا أودعه الله من الأسرار والمزايا ما يكفل له الخلود والدوام :

(أ) أودعه الوضوح والتيسير ، فهو كتاب مبين ، ولهذا سماه الله نوراً وهدىً ، وهو ميُسر للذكر ، يسهل على مَن قرأه أن يعيه ويحفظه ، ويسهل على مَن تلاه أو سمعه أن يفهمه ، كلٌ بقدر ما آتاه الله من فهم ومعرفة . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ؟ (١) .

(ب) كما أودعه الله قوة التأثير بما فيه من سر الإعجاز الإلهى ، فله سلطان على العقول والقلوب ، بما فى أحكامه من عدل ، وما فى أخباره من صدق ، وما فى معانيه ونظمه من روعة بالغة ، وما فى آياته من وعد ووعيد وتبشير وإنذار : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ (٢) . ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (٣) .

(جـ) وميّزه الله بالشمول ، فأودع فيه قواعد العدالة للفرد

---

(١) القمر : ١٧ (٢) الحشر : ٢١ (٣) الزمر : ٢٣

والأسرة والمجتمع والإنسانية ، وأصول الهداية لسعادة الدنيا والآخرة : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

(د) وفوق ذلك فإنَّ اللّه تولى حفظه من الضياع والنسيان والتحريف فيهأ له من أسباب البقاء ما لم يهيئه لكتاب قبله ، ليبقى حُجَّة للّه على عباده ما تعاقب الليل والنهار . ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٢) .

قال الطالب :

ولكن كيف يمكن لكتاب واحد أن يشتمل على تبيان كل شيء وهو لا يزيد على مئات من الصفحات ؟

قال الشيخ :

هذا سر الألوهية يا بنى ، ومع هذا لم أقل إنه اشتمل على تبيان الفروع والجزئيات والتفصيلات ، فهذه قد تُرك بعضها للرسول يبينه بقوله وعمله وهَدْيه ، وبعضها الآخر تُرِك لاجتهاد المجتهدين فى ضوء النصوص والقواعد العامة وما تقتضيه المصلحة المتغيرة بتغير الأماكن والأزمان والأحوال .

---

(١) النحل : ٨٩ (٢) الحجر : ٩

إنما قلت : إنه اشتمل على أصول الهداية التى تحدد الهدف وتنير السبيل ، فى علاقة الإنسان بخالقه وعلاقته بالحياة وعلاقته بالآخرين . علاقته بالفرد وبالأسرة وبالمجتمع وبالحكومة وعلاقة المجتمعات بعضها ببعض .

وحسبك أن تقرأ هذه الآيات ، فستجدها مصابيح هادية تنير ظلمات كثيرة ، وتحل عقد شتّى : فى العلاقة باللّه : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلاَ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ، فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١) ، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (٢) .

وفى العلاقة بالكون : ﴿ أَوَ لَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ (٣) ، ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ (٤) ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى

---

(١) آل عمران : ٦٤
(٢) البقرة : ١٨٦
(٣) الأعراف : ١٨٥
(٤) العنكبوت : ٢٠

الصُّدُور ﴾ [١] ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٢] ، ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [٣] .

وفى العلاقة بالحياة وطيباتها : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلا تُسْرِفُواْ ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [٤] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [٥] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُواْ ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [٦] .

وفى علاقة الرجل بالمرأة : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [٧] ، ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [٨] ، ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا

---

(١) الحج : ٤٦ (٢) الجاثية : ١٣ (٣) الملك : ١٥
(٤) الأعراف : ٣١ (٥) البقرة : ١٧٢ (٦) المائدة : ٨٧
(٧) البقرة : ١٨٧ (٨) البقرة : ٢٢٨

فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ (١) ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (٢) .

وفى علاقة الأغنياء بالفقراء : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (٣) ، ﴿ وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (٤) ، ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ ﴾ (٥) .

وفى علاقة الحاكم بالمحكومين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ ، فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (٦) .

وفى علاقة الأمة بغيرها من الأمم : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم

---

(١) النساء : ٣٤ (٢) الروم : ٢١ (٣) التوبة : ١٠٣
(٤) المعارج : ٢٤ - ٢٥ (٥) التوبة : ١١ (٦) النساء : ٥٨ - ٥٩

مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (١) ، ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (٢) .

قال الطالب لشيخه :

ما أبلغ هذه الآيات ، وما أروعها ، وما أجمعها لأصول العدالة والفضيلة ! ولكنى أحب أن أسأل :

إذا كان القرآن هو مصدر الحق الأوحد ، فما بال أهله - وأنا أعنى المسلمين - قد ضلُّوا وتفرقوا وأصبحوا فى مؤخرة الأمم علماً وحضارة وتقدماً ؟ وهل يعنى إتباع الحق أن يتأخر أهله عن القافلة ، ويلفهم الضعف والخمول بردائه الأسود ؟

قال الشيخ :

مهلاً يا بنى ، فإنما حلَّ بالمسلمين ما حل ، لانحرافهم عن الحق الذى جاء به هذا الكتاب ، وقد تجلى هذا الانحراف فى عدة مظاهر :

أولها : أنهم أخذوا بعض هذا الكتاب وتركوا بعضه ، وتلك من الرذائل التى أنكرها القرآن على بنى إسرائيل حيث قال : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَن

---

(١) الأنفال : ٦٠ (٢) الأنفال : ٦١

يَفْعَلُ ذَلِكَ منكُمْ إلا خِزْيٌ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾ (١) . ولهذا كان من وصية الله لرسوله : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (٢) .

ثانيها : أنهم قلدوا دينهم رجالاً غير معصومين من الخطأ ولووا أعناق آيات الكتاب لتوافق تفكيرهم ونسوا أن الكتاب أصل يُرَد إليه غيره ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (٣) .

ثالثها : أنهم ظنوا بركة هذا الكتاب فى تزيين الجدران بآياته أو بتلاوته على الموتى أو نحو ذلك ، وجهلوا أو غفلوا أن البركة إنما هى فى اتباعه والعمل بتعاليمه كما قال تعالى : ﴿ وهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤) .

إن تعاليم القرآن يجب أن تؤخذ جملة سواء منها ما يتعلق بالفرد أم بالمجتمع أم بالدولة . وقد روى المفسرون أن بعض اليهود أسلم وأراد أن يحتفظ بشىء من تعاليم اليهودية فنزل قوله تعالى :

---

(١) البقرة : ٨٥ (٢) المائدة : ٤٩

(٣) النساء : ٥٩ (٤) الأنعام : ١٥٥

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِى السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١) .

ومعنى : ﴿ ادْخُلُواْ فِى السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ : أى فى الإسلام كله . قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية : « يقول الله تعالى آمراً عباده المؤمنين به ، المصدِّقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه ، والعمل بجميع أوامره ، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك » .

هذا الكتاب كله - أو هذا الدين بجميع شعائره وشرائعه - « وصفة طبية » متكاملة لا يجوز أخذ بعضها وإهمال بعضها ، فإنها كلٌ لا يتجزأ .

إن هذا الكتاب يمنحنا نظاماً مستقلاً للحياة ، ذا صبغة خاصة ووجهة خاصة : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ ؛ (٢) ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ ؛ (٣) ، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً ﴾ ؛ (٤) .

فلا يجوز أن تُدخل فى هذا الجهاز « قِطَعاً » أجنبية دخيلة لا توائم تركيبه ، ولا تلائم بقية أجزائه . إن ضررها وخطرها قد

---

(١) البقرة : ٢٠٨ (٢) البقرة : ١٣٨
(٣) النساء : ١٢٢ (٤) المائدة : ٥٠

لا يظهر لأول وهلة ، ولكن سرعان ما يبدو خطرها على سلامة الجهاز كله .

قال الطالب :

بعد هذا البيان الجامع منك ، أرجو أن تأذن لى فى سؤال يهمنى ويهم الكثيرين !

قال الأستاذ : سَلْ .

قال الطالب :

لقد ذكرتَ أن اللّه تعالى قد هيأ لنا سبل الهداية للحق ، فما بال أكثر الناس قد أعرضوا عنه ، وضلُّوا عن سبيله ضلالاً بعيداً ، بل عادوه وحاربوا أهله ؟ وهل لذلك من سبب نعرفه ؟

قال الأستاذ :

الواقع أنَّ الإعراض عن الحق ، بل إعلان الحرب عليه واقع فعلاً ، بل هو واقع من أكثرية البَشر ، وهو أمر مؤسف حقاً .

وقد أكد القرآن هذه الحقيقة المؤلمة ، التى لا تُشَرِّف بنى الإنسان أبداً ، وهى أن أكثر الناس يكرهون الحق ، مما يفضى بهم إلى سخط اللّه وعذاب جهنم .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لا يُفْتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ

هُمُ الظَّالمِينَ * وَنَادَوْاْ يَا مَالكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ، قَالَ إِنَّكُم مَاكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ (١) .

أما لماذا يكره الناس الحق ، فذلك يرجع فى نظرى إلى سببين أساسيين :

السبب الأول : هو جهل الناس بالحق . وقديماً قيل : « الناس أعداء ما جهلوا » ، « ومَن جهل شيئاً عاداه » ، وقال القرآن : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ، فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (٣) .

السبب الثانى : فهو اتباع الهوى . فإن الهوى إله معبود ، ومَن جعل إلهه هواه فهيهات أن يذعن للحق . ومن هنا قال تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٤) ، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ ؛ (٥) .

---

(١) الزخرف : ٧٤ - ٧٨ (٢) الأنبياء : ٢٤ (٣) يونس : ٣٩
(٤) سورة ص : ٢٦ (٥) القصص : ٥٠

قال الفتى :

ولكن أعلام الحق لائحة وسبيله واضحة ، فما الذى جعلهم يجهلونه ولا يعرفونه ؟

قال الشيخ :

إنما يأتى الجهل بالحق من جملة أمور :

١ - منها الغفلة السادرة ، التى تجعل بعض الناس يعيش فى الدنيا حياً كميت ، وموجوداً كمفقود . معطِّل السمع والبصر والفؤاد ، وهى الأدوات التى وهبه الله إياها ، ليستخدمها فى معرفة الحق ، فبالسمع يروى علم غيره ، وبالبصر يقرأ ويلاحظ ويجرب ، وبالفؤاد يرتب المقدمات ويستخلص النتائج ، ويصحح ما قد يخطىء فيه السمع والبصر .

لقد امتنَّ الله على الإنسان بهذه الأدوات الثلاث : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

وحذَّر من إهمالها واتباع الإنسان ما ليس له به علم ، والسعى وراء التقليد أو الظن أو الوهم : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (٢) .

---

(١) النحل : ٧٨ (٢) الإسراء : ٣٦

ولكن هؤلاء باستغراقهم فى الغفلة خرَّبوا هذه الأدوات التى هى مفاتيح المعرفة للأوّلين والآخرين . فلا عجب أن يكون مصير هؤلاء كما ذكر الله تعالي : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١) .

ويحكى الله عن أصحاب النار فى الآخرة : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُواْ بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٢) .

لقد كان لهم سمع وكان لهم أبصار وكان لهم عقول ، ولكن الغلو أدى بهم إلى الجحود المظلم ، الذى جعلهم كأنهم : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) . ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ (٤) .

---

(١) الأعراف : ١٧٩
(٢) الملك : ١٠ - ١١
(٣) البقرة : ١٧١
(٤) الأحقاف : ٢٦

٢ - ومن أسباب الجهل بالحق : التقليد الأعمى ، تقليد الآباء والأجداد تارة ، وتقليد الرؤساء والكبراء طوراً آخر . وكلا الأمرين مذموم ، شدَّد الله النكير عليه فى كتابه ، وسخر من كل مَنْ جعل آباءه حُجَّة له فى اتباع الجهل والضلال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ (١) .

وللأسف الشديد أنَ هذا داءٌ قديم . فهذا نبى الله هود يجادل قومه ليفهمهم ، فماذا قالوا : ﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ (٢) .

وحينما قال إبراهيم لقومه : ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُواْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ (٣) .

وقال فرعون وملؤه لموسى : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ ؟ (٤) .

﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ، قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) البقرة : ١٧٠ (٢) الأعراف : ٧٠ (٣) الأنبياء : ٥٢ - ٥٣
(٤) يونس : ٧٨ (٥) الزخرف : ٢٣ - ٢٤

وفى نهى القرآن عن تقليد الرؤساء وطاعة الكبراء يعرض لنا صوراً مؤثرة ومثيرة عن الكبراء وأذنابهم يوم القيامة ، وكيف يتبرأ كلا الفريقين من الآخر . وقد تكرر هذا المشهد فى عدة سور من القرآن . ففى سورة البقرة : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ ﴾ (١) .

وفى سورة الأعراف : ﴿ قَالَ ادْخُلُواْ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِى النَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ، حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ ، قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وفى سورة الأحزاب : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا * وَقَالُواْ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ﴾ (٣) .

وفى سورة سبأ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ

---

(١) البقرة : ١٦٦ (٢) الأعراف : ٣٨ (٣) الأحزاب : ٦٦ - ٦٨

رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وفى سورة الصافات وسورة « ص » ذكر مثل هذا الحوار .

إنَّ أشد ما يطمس العقل البَشرى هو التعصب الجامد المظلم ، الذى يحبس صاحبه فى قمقم القديم الذى كان عليه الآباء ، أو الواقع الذى عليه الأكثرية أو الرؤساء .

إن هذا التعصب يعمى المرء ويصمه ، ويجعل عقله كأنما هو منحوت من حجارة صمّاء .

ألم تر كيف فعل التعصب بكفرة مكة الذين قالوا فى عناد غريب : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢) .

ولو عقل القوم وأنصفوا لقالوا : اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له واجعلنا من جنده ، وأنصاره ، ولكن تعصبهم للباطل أعماهم : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

ثم انظر كيف حكى القرآن عنهم : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ

---

(١) سبأ : ٣١ (٢) الأنفال : ٣٢ (٣) البقرة : ١٧١

مِّمَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ (١) .

قال الطالب :

لقد تبين لى الآن : لماذا يجهل الناس الحق ، مع ما آتاهم الله من أدوات معرفته ووسائل الوصول إليه .

ويقى الآن أن أعرف السر فى السبب الآخر ، الذى يجعل الناس يعرضون عن الحق ويكرهونه ، مع علمهم بأنه حق ، ومع ما فى اتباع الحق من خير لهم فى الدنيا والآخرة .

وأرجو ألا يضيق أستاذنا بكثرة الأسئلة ، فأنت الذى غرستَ فينا حب المعرفة والاستقصاء ، والموضوع جد خطير .

قال الشيخ :

كلا .. إنى منشرح الصدر بكل ما توجه من أسئلة تفتح آفاق الموضوع ، وتتيح لى الرد على شبهات قد تحيك فى الصدور . وقديماً قال أحد العلماء وقد سئل : فيم لذّتك ؟ فقال : فى حُجَّة تتبختر اتضاحاً ، وشبهة تتضاءل افتضاحاً . أما السر فى كراهية الناس للحق ، فما أحسبه أمراً غامضاً على مثلك :

---

(١) فصلت : ٥

إن الحق يا بنى مر المذاق ، كثير التكاليف ، لما يلزمه غالباً من مخالفة هوى النفس وعادات المجتمع ، ونزعات الخاصة وشهوات العامة .

ولهذا نجد أكثر الناس يكرهون الحق ، وإن لم يكن أكثرهم يجهلونه .

وفى هذا يذكر القرآن عن مشركى مكة منكراً ومعجباً من موقفهم من دعوة الرسول ﷺ : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ، بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ (١) .

لقد بيَّن القرآن العلّة الأولى فى إعراضهم عن الدعوة ، وما هى إلا أنه جاءهم بالحق الذي يكرهه أكثرهم . الحق الذى يسفِّه أحلامهم وهم عند أنفسهم أعقل العقلاء ، ويعيب آلهتهم .

ثم هذا الحق يفرض عليهم المساواة والعدل وقد تعودوا التفرقة والبغى ، ويحرِّم عليهم الشهوات الباغية وهم فيها غارقون . فلا عجب أن ينكروا هذا الحق لأول وهلة من عرضه عليهم قبل أن يمحصوا

---

(١) المؤمنون : ٦٨ - ٧١

ويتفكروا . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (١) .

وهناك دوافع نفسية كثيرة تدفع بأصحابها إلى مخالفة الحق على علم . منهم مَن يخالفه ويكرهه أنفة واستكباراً أن يخضع لمن يعده أدنى منه منزلة أو أقل مالاً ونفراً كمشركى مكة الذين حدَّث القرآن عنهم فى موقفهم من رسول الله فقال : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٢) .

ويريدون بالعظيم أن يكون ذا مال وجاه كالوليد بن المغيرة فى مكة ، وعروة بن مسعود الثقفى فى الطائف .

ومثل هؤلاء ، فرعون وملؤه الذين استكبروا أن يؤمنوا بموسى وهو من بنى إسرائيل الذين كانوا فى خدمتهم : ﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ ؛ (٣) .

وبعضهم يعاديه بغياً وحسداً لمن ظهر الحق على يديه ، كموقف اليهود من نبوة محمد ﷺ ، الذين عرفوه من أوصافه فى كتبهم

---

(١) الأحقاف : ٧ (٢) الزخرف : ٢٩ - ٣١ (٣) المؤمنون : ٤٧

كما يعرفون أبناءهم ، ثم أبوا أن يصدقوه : ﴿ حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ (١) .

وبعضهم يعرض عنه انشغالاً بحظوظ نفسه ، وشهوات حسه ، وترف عيشه ، فلم يترك له اتباع الهوى فراغاً لاتباع الحق : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٢) .

وكل ما ذكرتُ من هذه الدوافع والموانع التى تصد الناس عن الحق مع تبين معالمه ودلائله لهم ، تدخل تحت هذا العنوان العريض : « اتباع الهوى » سواء أكان هوى النفس أو هوى الغير . بل نستطيع أن نجعل السبب الأول داخلاً أيضاً تحت هذا العنوان ، إذ الجهل بالحق غالباً ما يكون منشؤه اتباع هوى النفس فى الراحة والكسل عن طلب الحق والسعى إليه . أو اتباع هوى الآباء والرؤساء ، ومسايرة الناس فيما هم عليه ، دون بذل جهد لطلب الحق ، أو استعمال العقل الذى وهبه الله للإنسان ، قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (٣) .

---

(١) البقرة : ١٠٩ (٢) سبأ : ٣٤ (١) الفرقان : ٤٣ - ٤٤

ومن هنا حذَّر القرآن من - اتباع الهوى - وذم أصحابه أبلغ الذم : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (١) . ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ (٢) .

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ﴾ (٣) .

قال الطالب :

لقد فهمتُ من حديثك الشيء الكثير ، كنت أحسب أن هداية الناس إلى الحق أمر يسير قريب ، ولكنى عرفتُ الآن أنه شيء عسير غير يسير ، وأن المعوقات عنه كثيرة ، منها ما ينشأ عن الجهل ، ومنها ما ينشأ عن الهوى ، ولكن ربما كان الأيسر على دعاة الحق وهداته أن يبدأو بالجاهلين به ، فيبينوه لهم ويحببوه إليهم .

قال الأستاذ :

هذا حسن ، ولكن يجب أن تعلم يا بنى أن الجاهلين صنفان :

---

(١) محمد : ١٦ (٢) الأعراف : ١٧٦ (٣) الجاثية : ٢٣

* صنف يدرى من نفسه أنه ناقص العلم بالحق ، ويشعر أنه فى حاجة إلى مَن يهديه ويأخذ بيده ، وجهل هذا الصنف يسمى « الجهل البسيط » .

* والصنف الثانى : يضع نفسه فى صف العارفين ، الذين عرفوا الحق عن بيِّنة ، فهو متمسك بما هو عليه من باطل ، متوهماً أنه الحق الصريح ، وجهل هذا الصنف يسمى « الجهل المركب » وهذا الصنف يعسر عليك أن تعرِّفه بالحق أو تزحزحه عن الباطل . وقد قال حكيم عربى :

الناس أربعة : رجل يدرى ويدرى أنه يدرى فهذا عالم فاتبعوه .

ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فهذا نائم فأيقظوه .

ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى فهذا مسترشد فأرشدوه .

ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فهذا ضال فارفضوه .

والغريب حقاً ، أن أكثر الجاهلين من هذا الصنف الثانى ، الذين قال الله عنهم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُواْ فِى الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ

أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ، أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ فَرِيقاً هَدَىٰ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ ، إِنَّهُمُ اتَّخَذُواْ الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ (٣) .

ومن هذا الصنف - للأسف - كثير ممن يُعَدون فى الدنيا مُفكِّرينَ وباحثينَ وعلماء ومُؤَلِّفين ، أو أدباء وفنانين .

قال الطالب :

إذا كان أمثال هؤلاء بعيدين عن الحق ، فما بال غيرهم ؟ وما السبيل إذاً للاهتداء إلى الحق ؟

قال الأستاذ :

إن أول خطوة فى هذا السبيل أن يعرف الإنسان قدر نفسه ومنزلته فى هذا الوجود . فلا يدع نفسه فريسة للغفلات والشهوات

---

(١) البقرة : ١١ - ١٣ (٢) الأعراف : ٣٠ (٣) الكهف : ١٠٣ - ١٠٤

كبهيمة الأنعام ، التى تُقاد فتنقاد ، لا تعرف غاية ولا تهتدى سبيلاً .

كما لا يغالى بنفسه ، فيرفعها فوق مكانتها ، ويظن نفسه مستغيناً عن اللّه ، الذى خلقه فسوّاه فعدله ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، وسخّر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه .

إنّ على الإنسان أن يدع الغفلة والشهوة والاستسلام لما هو فيه ، فليس هو بهيمة .

وإنّ على الإنسان أن يدع الغرور والكبرياء والعُجْب بما عنده من علم أو رأى فليس هو إلهاً .

وإنّ عليه أن يعلم أنه - قبل كل شىء - مخلوق للّه تعالى ، غير أنه مخلوق كريم على اللّه ، خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه ، وسخّر له هذا الكون ، وجعله خليفة فى الأرض .

فإذا عرف الإنسان قَدْر نفسه ، دفعه ذلك إلى طلب الحق ، والبحث عنه ، ومحاولة الاهتداء إليه . وهذه نقطة البداية ، بل سبيل الهداية .

قال الطالب :

فإننا نرى بعض الناس يطلبون الحق ، ويحاولون الوصول إليه ، ولكنهم لا يصلون إليه فما سر ذلك ؟

قال الأستاذ :

سر ذلك يرجع إلى جملة أمور :

أولاً : إما أنهم يعتمدون على الظن فى مقام لا يغنى فيه إلا اليقين الجازم ، وذلك كالعقائد والأصول الكلية . لا يجوز أن نعتمد على الظن ، فضلاً عن الشك أو الوهم أو الافتراض الذى لا دليل عليه كالذين قال الله فيهم : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إلا ظَنًّا ، إنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ (١) ، ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ (٢) .

ثانياً : وإما أنهم يتأثرون بأهواء النفس وعواطفها ونزواتها فى أمور لا يجوز أن يحكم فيها إلا العقل والبرهان ومقررات العلم القاطعة . وإن كثيراً من الأدباء والكُتّاب والمفكرين لينتهون إلى آراء فى النفس والحياة والكون هى فى الواقع ترجمة لعُقَد فى نفوسهم أو رغبات مكبوتة فى صدورهم ، وربما كانت هذه الآراء

---

(١) يونس : ٣٦ (٢) النساء : ١٥٧

صوراً واضحة أو مهوشة لأفكار نضحها واقع أسرتهم أو مجتمعهم عليهم ، إيجاباً أو سلباً ، فكانوا فى الحقيقة منفعلين وهم يحسبون أنهم فاعلون ؟ ومتأثرون ، وهم يزعمون أنهم مؤثرون . ومن هنا قال القرآن : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (١) .

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ (٢) .

﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٣) .

إنَّ اتباع الظن فى مقام اليقين ، واتباع الهوى الخفى فى مقام الحُجَّة والبرهان ، طالما أضلا كثيراً من الناس الذين يحسبون أنهم مهتدون ، وخاصة إذا اجتمع الظن والهوى .

كما قال تعالى فى عُبَّاد اللات والعُزَّى ومناة الثالثة الأخرى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ (٤) .

---

(١) الأنعام : ١١٩
(٢) الروم : ٢٩
(٣) سورة ص : ٢٦
(٤) النجم : ٢٣

ومما يؤسف له أن أكثرية البَشر قد سقطوا فريسة لهذا الضلال البعيد ، ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ ﴾ (١) .

ثالثاً : وإما أنهم يعتمدون على عقل الإنسان في مقام لا يحسم فيه إلا وحي الله ، كمعرفة أصل الوجود ومبدأ الإنسان ونهايته ، ورسالته في الحياة ، وغاية هذا الكون وأسراره ، وأصول العدالة والفضيلة . فهذه الأمور وما إليها يعجز العقل عن إدراكها والوصول فيها إلى قرار قاطع ، لأنها أعلى من مستوى إدراكه ، وأوسع من مجال بحثه ، وأبعد عن اختصاصه ووسائله في المعرفة ، وكل ما يصل إليه فيها أخبار تحتمل الصدق والكذب ، ودعاوى تقبل التسليم والرفض ، وأفكار وآراءٌ تتسع للصواب والخطأ ، وآراءٌ تناقضها آراء أُخر ، مثلها أو أقوى منها أو أضعف ، ولكنها على كل حال غير معصومة .

وهذا شأن أولئك الذين حاولوا أن يفسروا الوجود ، أو يضعوا فلسفة شاملة للحياة والتاريخ ، أو يخطوا للبَشر مصيرهم كأنما هم خلق من خلقهم ، هم به أعلم ، وعليه أقدر ، وهيهات هيهات لما يدَّعون .

إنّ منهم من أنكر وجود الإله ، ولكنهم نصبوا أنفسهم آلهة

---

(١) الأنعام : ١١٦

للبَشر ، يتحكمون فى تاريخهم ومصيرهم ، يتحكمون فيهم نظرياً بما شاؤوا من التأويل والتفسير ، ويتحكمون فيهم عملياً بما شاؤوا من التغيير والتحوير .

رابعاً : وإما أنهم لم يتحرروا بعد من العبودية الفكرية والتبعية العقلية لغيرهم ، فلا يزالون يقدسون أقولاً لذلك الفيلسوف الشهير ، أو ذلك الأديب الكبير ، وذلك المصلح الخطير . فهم فى الواقع يستندون إلى عقول غيرهم فى موضع لا يصح فيه الاعتماد إلا على عقولهم أنفسهم ، وما تبيَّن لهم من الحق . إنهم فى حقيقة الأمر عبيد مقلدون لا أحرار باحثون .

ومن هذا الصنف كثير من المثقفين عندنا . فقد هالهم ضخامة وروعة ذلك الصنم الكبير المزوق الذى صنعته أوروبا - أعنى به الحضارة المادية الحسية الصناعية . فخرّوا لهذا الصنم ساجدين ، وانقادوا لسدنته صاغرين ، فهم حين يقرأون عن حضارة الغرب أو فلاسفة الغرب ، يقرأون بعقلية المعجب المفتون . وحين يذهبون إلى ديار الغرب ينظرون إليها بعين العاشق المشدوه .

إنَّ هؤلاء قد وضعوا أنفسهم فى موقف لا يستطيعون معه استخلاص الحق من بين الأباطيل ، ولا إطراح الباطل الذى لبس لبوس الحق .

إنَّ موقف هؤلاء المساكين لا يبلغ أن يكون موقف التلاميذ ،

فإننا نعرف كثيراً من التلاميذ يناقشون أساتذتهم بحرية وشجاعة ، ويأخذون منهم ويدعون ، فهل يمكننا أن نصف موقفهم إلا بأنه موقف العبيد ؟ العبيد الذين ذابت شخصيتهم فى إرادة سادتهم ، فبهم يسمعون ، وبهم يبصرون ، وبهم يعقلون ، إن كانوا يعقلون !!

إنّ بريق الحضارة المنتصرة يخطف أبصارهم ، وطنين الأسماء اللامعة يدوى فى أسماعهم ، فلا يملكون بعد ذلك إلا أن يطأطئوا الرؤوس ، ويسيروا فى الركَاب خاشعين .

وقد وقع فى هذه الغلطة نفسها أفراد من عمالقة التفكير ممن يُعرفون بالفلاسفة فى تاريخ الإسلام . فعندما ترجموا الفلسفة اليونانية راعهم هذا الإنتاج الفكرى الجبار ، وشدهتهم تلك الأسماء الرنانة التى أنتجت هذا التراث ، فملك الإعجاب بها عليهم أنفسهم ، وأفضي ذلك بالبعض منهم إلى تقديس كل ما فى هذه الفلسفة من آراء ، وكان فيها كثير من الخرق ملتبساً بكثير من الباطل ، فلم يسمح لهم إعجابهم الشديد أن يقفوا موقف المستقل فى تفكيره ، المعتد بما عنده ، فينتحل ويتخير ، ويزن ويرجح ، ويُصوِّب ويُخطِّىء ، ويأخذ ويترك ، ولكنهم خلطوا ما يُقبل فيه الظن ، بما لا يُقبل فيه إلا اليقين ، وقاسوا ما هو من شأن العقل بما ليس من شأنه ، وحسبوا أن الذى انتهى إلى مقررات يقينية فى الرياضيات والطبيعيات لا بد أن تكون مقرراته قاطعة فى الإلهيات وما وراء الطبيعة .

وكانت النتيجة أن أوّلوا كثيراً من آيات القرآن ، لتوافق فلسفة أرسطو فى شأن الإله ، أو العلّة الأولى ، أو المحرّك الأول كما سماه ، أو توافق آراء الفلكيين اليونانيين الذين زعموا أنّ الأفلاك العلوية أجسام صلبة لا تقبل الخرق ولا الالتئام .

فيا ليت هؤلاء الفلاسفة يعلمون أن كثيراً من الأفكار التى قدّسوها وأوّلوا القرآن لأجلها قد أصبحت فى عداد الخرافات وأساطير الأوّلين . لم يعد شكل الأرض والكون كما تصوّروه ، ولم تعد الأفلاك كما فهموا ، وليس الكون مركّباً من العناصر الأربعة : الماء ، والتراب ، والهواء ، والنار ، كما كانوا يظنون بل يوقنون .

إنّ تلميذ المدارس الابتدائية اليوم يعرف عن الكون والحياة معلومات صحيحة أكثر مما كان يعرف أفلاطون وأرسطو !

قال الطالب :

فماذا يجب على الإنسان الذى يرغب فى الاهتداء إلى الحق أن يفعله ؟

قال الأستاذ :

ذلك بيّن مما ذكرت من العوارض والآفات . أعنى ، أن عليه أن يحذر من تلك المضلات التى تنحرف به عن سواء الصراط ، وتميل به عن طريق الحق المستقيم :

عليه أن يطرح الظنون والأوهام من تفكيره ، ويطارد الأهواء

والتزعات من نفسه ، وأن يتحرر من التبعية والعصبية لأفكار سابقة لم تثبت صحتها بيقين ، وأن يكون على قدر من التواضع يجتنب الغرور والعُجْب ، فيعرف حدود ما هو فى استطاعة فكره ، وما هو فوق استطاعته .

وقبل ذلك كله عليه أن يتأكد من صدق نيَّته وإخلاصه فى طلب الحق ، وإيثاره على هوى نفسه وتقاليد قومه ، وأن يتجرد مع ذلك من تأثير العقل الجَمعى وإيحاءاته ، وفى ذلك يقول الله مخاطباً رسوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ، أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ (١) .

ومن دلائل الإخلاص فى طلب الحق ألا يتحيز طالبه ، فإن المخلص يقبل الحق من أى جهة أتى ، وعلى يد أى إنسان ظهر . أما المتحيز فلا يقبل الحق إلا إذا جاء من حيث يهوى ، وهذا ما عابه الله على اليهود الذين كفروا بمحمد ﷺ ، لأنه ليس من بنى إسرائيل ، مع أنهم كانوا ينتظرون بعثته ، ويستفتحون به على الوثنيين فى الجاهلية .

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا

---

(١) سبأ : ٤٦

جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ به ، فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافرينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَواْ به أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيَاً أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ من فَضْله عَلَىٰ مَن يَشَآءُ منْ عبَاده ، فَبَآءُوا بغَضَب عَلَى غَضَب ، وَللْكَافرينَ عَذَابٌ مُّهينٌ * وَإِذَا قيلَ لَهُمْ آمنُواْ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ نُؤْمنُ بِمَآ أُنزلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ (١) .

ومن دلائل الإخلاص فى طلب الحق أن يقبله الإنسان ولو كان عليه لا له ، بل ولو كانت نتيجته الابتلاء بالجوع والخوف ونقص الأموال والأنفس والثمرات .

هناك مَن طلب الحق ، فلما عرف أنه قد يصيبه فى دنياه ، فى ماله أو جاهه أعرض عنه . ومن أبرز الأمثلة لذلك « هرقل » إمبراطور الروم الذى أرسل إليه الرسول ﷺ كتابه ليُسلم فَيَسلم ، ويكسب الخير والهدى لنفسه ولقومه ، وقد استدعى أبا سفيان ومَن معه من رجال قريش وهم مشركون . فسألهم أسئلة دقيقة عن محمد ونشأته وشخصيته ودعوته ومَن معه ومَن عليه . مما أكد له - بكل وضوح - أنه الرسول المُنتَظر حقاً لهداية البَشرية ، ولكنه لما وجد رجال الكهنوت ثائرين عليه ، غلب حب مُلْكه على الحق الذى عرفه - وهكذا حدثنا القرآن عن بنى إسرائيل الذين لا يقبلون نبوة نبى

(١) البقرة : ٨٩ - ٩١

إلا إذا جاءهم بما تهوى أنفسهم . قال تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ ؟ (١) .

ويقول تعالى فى شأن جماعة من المنافقين : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ، بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) .

قال الطالب لأستاذه :

وإذا عرفنا الحق وتبيَّن لنا الرشد من الغى ، فهل يكفينا هذا لنكون من أهله وحزبه كما قال سقراط قديماً : « الفضيلة : المعرفة » ؟

قال الأستاذ المربى :

لا يا بنى ، إن المعرفة النظرية المجردة للحق لا بد منها لتكون على بصيرة ، ولكنها لا تجدى ولا تجعلك من أهله إلا إذا رسخت جذورها فى نفسك وكان لها الثمرات الآتية :

---

(١) البقرة : ٨٧ (٢) النور : ٤٧ - ٥٠

أولاً : أن تذعن للحق وتتبعه ، فإنَّ كثيراً من الناس عرفوا الحق ، ولم ينقادوا إليه اتباعاً لهوى أو كِبْر أو حسد أو تعصب أعمى ، كما قال الله في أحبار اليهود : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) . وكثير ...

وقال الرسول في دعائه : « اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه » .

ثانياً : أن تعتز بالحق وتنتصر له : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ (٢) .

ثالثاً : أن تدعو إليه ، وتعمل على تكثير جنده ، وتشييعهم عليه ، ومن هنا وصف الله المؤمنين الناجين من الخسران بقوله : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ (٣) .

رابعاً : أن يثبت عليه ويتحمل الأذى في سبيله ، ويصبر على البأساء والضراء من أجله ، فإن طريق الحق مفروش بالأشواك ، محفوف بالمكاره ، ملىء بالمعوقات وقُطّاع الطرق .

هذه سُنّة الله في الخلق ، ولن تجد لسُنّة الله تبديلاً . ولهذا

---

(١) البقرة : ١٤٦ (٢) النمل : ٧٩ (٣) سورة العصر كاملة .

أوصى الله رسوله بالاعتصام بالصبر فى آيات كثيرة من كتابه ، فقال : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) ، ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (٢) ، ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٣) ، ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٤) .

قال الطالب :

إنه والله لعبءٌ ثقيل !

قال الأستاذ :

ولكن جزاءه عند الله عظيم ، فى الدنيا والآخرة .

قال الطالب :

وأي جزاءٍ يناله فى الدنيا ما دام يعيش فى معركة مستمرة مع الباطل ، وما دام الباطل مدججاً بالسلاح ، ومعه العدد والعُدَّة ، والمال والرجال ؟

---

(١) الروم : ٦٠
(٢) الأحقاف : ٣٥
(٣) يونس : ١٠٩
(٤) آل عمران : ١٨٦

قال الأستاذ :

إن اللّه يداول الأيام بين الناس ، تربية لأهل الحق ، وتمييزاً لهم من غيرهم ، ليبتلى اللّه ما فى صدورهم وليتمحص ما فى قلوبهم . كما قال تعالى يخاطب المسلمين بعد غزوة « أحد » ، وقد استشهد فيها سبعون منهم : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (٢) .

ولكن العاقبة دائماً لأهل الحق ، ما داموا متبعين لسُنَّة اللّه فى الأسباب والمسببات ، إن اللّه تعالى أقام الحياتين : الأولى ، والأخرة ، على الحق .

ففى هذه الحياة كتب على نفسه أن يُحق الحق ، ويُبطل الباطل .

ومَن تأمل التاريخ وجده قصة صراع بين الحق والباطل . ينتهى بانتصار الحق وإن طال الأمد .

---

(١) آل عمران : ١٤٠ - ١٤١ (٢) آل عمران : ١٧٩

وهذه قصة موسى وفرعون مثلٌ واضح لذلك : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا من بَعْدهم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فرْعَوْنَ وَمَلإِيْه بآيَاتنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وكَانُواْ قَوْماً مُّجْرمينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ منْ عندنَا قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسحْرٌ مُّبينٌ * قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ للْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ ، أَسحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلحُ السَّاحرُونَ * قَالُواْ أَجئْتَنَا لتَلْفتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْه آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكبْرِيَاءُ فى الأَرْض وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بمُؤْمنينَ * وَقَالَ فرْعَوْنَ ائْتُونى بكُلِّ سَاحرٍ عَليمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ * فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جئْتُم به السِّحْرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلحُ عَمَلَ الْمُفْسدينَ * وَيُحقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بكَلمَاته وَلَوْ كَرهَ الْمُجْرمُونَ ﴾ (١) .

لقد ألقى السحرة حبالهم وعصيهم وأجمعوا كيدهم وزيَّنوا باطلهم حتى سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ، وحتى أوجس فى نفسه خيفة موسى ، ولكن مادا كانت النتيجة ؟! النتيجة ما قصَّه علينا القرآن :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ

---

(١) يونس : ٧٥ - ٨٢

مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ (١) .

وهل أنزل اللّه ملائكته يوم « بدر » إلا لنصرة الحق وهزيمة الباطل ؟! استمع إلى هذه الآيات : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٢) .

على أن صاحب الحق يكفيه جزاء في الدنيا ما يشعر به من عزة وسكينة باتباع الحق ونُصرته .

قال عبد اللّه بن الزبير : « واللّه ما عزَّ ذو باطل ، ولو طلع من جيبه القمر ، وما ذلَّ ذو حق ولو اجتمع عليه أهل الأرض » .

---

(١) الأعراف : ١١٧ - ١٢٢ (٢) الأنفال : ٥ - ٨

هذا فى الدنيا ...

وفى الآخرة يقضى الله تعالى بين عباده بالحق ، فيجزى كل نفس بما كسبت ، ويكافئها بما عملت : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

وهناك يعترف المؤمنون والمبطلون أنهم إنما يُجْزَون بالحق وحده .

فيقول المؤمنون أهل الحق حين يدخلون الجنة ويتبوأون منازلها : ﴿ الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

وأما المشركون الذين اتخذوا آلهة زعموها تشفع لهم يوم القيامة فقد تبيَّن لهم ضلالهم ، فما لهم من حميم ولا شفيع يُطاع ، وإنما هنا « الله يقضى بالحق » ، وفى هذا يقول القرآن : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) الزمر : ٦٩ - ٧٠ (٢) الأعراف : ٤٣ (٣) القصص : ٧٤ - ٧٥

هنالك يلمس الجميع الثمرة الحلوة لاتباع الحق ، والثمرة المرة لاتباع الباطل .

هنالك يوقنون أن الحق ينفع مَن اتبعه فى الدنيا وفى الآخرة . ينفع الفرد وينفع المجتمع معاً ، أما الباطل فإنه ضار بأهله فى الآخرة والأولى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ اتَّبَعُواْ الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّبَعُواْ الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ (١) .

قال الطالب لشيخه :

لقد ذكرتَ لى أن الحق من مقوماته الثبات والبقاء ، وأن الباطل من شأنه التلاشى والفناء ، ولكن ألسنا نرى فى الواقع باطلاً يبقى ويسود ويستمر حيناً من الدهر ، ونرى حقاً يضعف ويُغْلَب وينكمش ويختفى ؟!

قال الشيخ :

إنّ الباطل قد يظهر حيناً فى غفلة الحق ، ولكنه لا يدوم طويلاً ،

---

(١) محمد : ١ - ٣ .

ولا يستمر على ظهوره كثيراً ، فلا بد أن ينكشف ما فيه من زيف ، وأن يزحف عليه الحق فيدمغه ويمحوه ، كما يمحو الصبح سواد الظلام . وفى هذا يقول القرآن : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِىءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ (١) .

إنّ الباطل كالرغوة المنتفخة وكالزَبَد الرابى على سطح الماء ، يعلو قليلاً ثم يتلاشي ويختفى ولا يبقى إلا الماء الخالص والنبع الأصيل . وهذا مَثَلٌ ضربه الله فى القرآن فقال : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ (٢) . وهذه السُنّة الإلهية فى علية الحق على الباطل قد أكدها القرآن الكريم فى غير موضع من سوره . وتأمل معى مثل هذه الآيات : ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٣) . ويصوِّر المعركة بين الحق والباطل ، فتحس بأن الحق قذيفة تنقض على

(١) سبأ : ٤٨ - ٤٩ (٢) الرعد : ١٧ (٣) الشورى : ٢٤

الباطل فتسحقه : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ (١) .

وفى فتح مكة أمسك النبى ﷺ برمح فى يده وأهوى به على الأصنام التى طالما عُبدت من دون الله وهو يتلو قول الله : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ (٢) .

قال الطالب :

وما رأيك فى حضارة الغرب التى تسود العالم اليوم : أحق هى أم باطل ؟

قال الشيخ :

إنَّ ما فيها من الباطل أضعاف ما فيها من الحق ، ومن باطلها هذا الغلو الذي جاوز الحد الوسط فى كل أمر :

غلوها فى تمتيع الجسد على حساب الروح ، وفى تقديس العقل على حساب الوحى ، وفى الحرص على متاع الدنيا على حساب الآخرة ، وفى تدليل المرأة على حساب الرجل ، وفى إطلاق الحرية للفرد على حساب المجتمع ، وفى إيثار المنفعة على حساب الأخلاق ، وفى نزعتها القومية على حساب الإنسانية .

وقبل ذلك كله فى نسيانها لله تعالى ، مما أنساها حقيقة نفسها ،

---

(١) الأنبياء : ١٨ (٢) الإسراء : ٨١

وصدق الله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ، أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١) .

قال الطالب لأستاذه :

ولكن الإنسان فى الغرب حطم الذرّة وغزا الفضاء ، وسخّر الطبيعة ، واكتشف كثيراً من المجهول فهلاّ نرى هذا التقدم العلمى قرّبه إلى الحق ؟

قال الأستاذ :

إنّ الإنسان الغربى يا بنى اكتشف أشياء كثيرة ولكنه لم يكتشف سر وجوده ، وسخّر الطبيعة ولكنه لم يسخّر هواه ، وحطم الذرّة ولكنه لم يحطم أوثانه الفكرية والروحية . وما أروع ما قاله أحد فلاسفة الهند لأحد مفكرى الغرب ، قال : لقد أحسنتم أن تحلقوا فى الهواء كالطير ، وأن تغوصوا فى البحر كالسمك ، ولكنكم لم تحسنوا أن تمشوا على الأرض كالإنسان !!

قال الفتى متعجباً :

وإذا كان الغرب هكذا إغراقاً فى الباطل ، فما باله يمسك بعجلة القيادة ؟ ويتحكم فى زمام القافلة البَشرية ، ويوجه ركْب الحضارة

---

(١) الحشر : ١٩

أنّى يشاء ، ويوقد الحرب ويطفئها ، والعالَم رهن إشارته ، وطوع هواه ؟ أليس أولى بالباطل أن يندحر ويولى الأدبار ؟ أليس سمى باطلاً لبطلانه وذهابه وتلاشيه ؟ فلماذا بقى الغرب هذه القرون سيداً مسيطراً ؟!

قال الأستاذ الشيخ :

قلت لك يا بنى : إنَّ الباطل قد يقوم فى غفلة الحق ، على أن الباطل إذا ظهر حيناً ، فإنما ذلك لشىء من الحق اختلسه فضمه فى حناياه .

ألا ترى اللصوص يبقى أمرهم جميعاً ما دام معهم بصيص من الحق يتعاملون به فيما يبنهم فقط ، كاحترام القسم فيما بينهم ، وكتمان ما تواصوا بكتمانه ، واقتسام ما سرقوه بالعدل ، ومعاونة مَن سقط منهم .. وهكذا ، حتى إذا تسرب هذا البصيص من بينهم فلا بد أن ينكشف أمرهم وينفرط عقدهم ، وتقبض عليهم يد العدالة ، فيؤخذ بنواصيهم وأقدامهم ، ويُساقون إلى عذاب الهون جزاءً بما كانوا يكسبون ؟

إنَّ لدى الغربيين بقايا من حق إلى جانب ركام هائل من الباطل ، لا بد أن يدمر عليهم حضارتهم وينقل الزمام إلى غيرهم .

وقد قيل قديماً : دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة .

قال الفتى :

إننا نقرأ بين الحين والحين أقوالاً لمفكرين من الغرب نفسه ينعون على حضارتهم ماديتها المسرفة وحيوانيتها الهابطة ، فهل يمكن أن يكون هؤلاء رسل هداية لقومهم ؟ وهل نأمل فى يوم يؤوب فيه هؤلاء الغافلون إلى فطرتهم ورشدهم ؟ وإلا فما السبيل إلى هداية الإنسانية ، وإنقاذها مما تردت فيه من الباطل والغى ؟

قال الشيخ :

صحيح يا بنى أن بعض الغربيين قد أفاقوا من سباتهم فرأوا حضارتهم قد مسخت فطرة البَشر ، وحرمته سكينة النفس ، ودمرت عليه خصائص الإنسانية ومن هؤلاء شبنجلر في كتابه « تدهور الغرب » ، وبرنارد شو فى مسرحياته ، وتوينبى فى كتب التاريخ ، وبرجسون ، وكولن ولسون فى « سقوط الحضارة » ، ولننجستون فى « التربية لعالم حائر » ، والكسيس كاريل فى « الإنسان ذلك المجهول » وغيرهم وغيرهم .. بَيْد أن هؤلاء جميعاً شخَّصوا كثيراً من الداء ، ولكنهم لم يهتدوا بعد إلى حقيقة الدواء .

قال الطالب :

فما الدواء إذن وكيف يهتدون إليه ؟

قال الأستاذ :

الدواء عندنا نحن ، وليس عند غيرنا ، الدواء فى حضارتنا

الربانية الإنسانية العالمية ، حضارة الحق والخير والتوازن والعدل ، التي تضع كل شيء في موضعه وتعطي كل ذي حق حقه ، ولا يطغى جانب من الحياة فيها على جانب ، فهي تشيد المسجد إلى جانب المصنع ، وتعلي المئذنة كما تعلي المدخنة ، تجمع بين الدين والعلم ، وتوفق بين العقل والقلب ، وتمزج بين الروح والمادة ، وتصل بين الأمس واليوم والغد ، وتربط بين المثال والواقع ، وتقسط بين الحق والواجب ، وتعدل بين الرجل والمرأة ، وتوازن بين الفرد والمجتمع ، وتصلح بين الغني والفقير ، وتؤلف بين الشعب والحاكم ، وتؤاخي بين الإنسان والإنسان .

إذا اهتدت الإنسانية إلى هذه الحضارة ، فقد اهتدت إلى سر السعادة وروحها . وإلا كانت جهودها هباءً ، ومحاولاتها كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

لن تهتدي الإنسانية إلى الحق وهي تطلبه من فلسفات وضعية متناقضة ، ومذاهب أرضية هابطة تعالج مشكلة بخلق أخرى ، وتتداوى من داء بداء جديد .

ولن تهتدي إلى الحق وهي تسلم أزمتها الفكرية والروحية لأناس لا يرجون الله والدار الآخرة . همهم استغلال الغرائز وإيقاظ الشهوات .

لن تهتدى الإنسانية إلى الحق ، إلا إذا طلبته من مصدره الأوحد وهو كتاب الله الخالد - القرآن - وإلا إذا تسلم قيادتها رجال يقدسون الحق ولا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً .

ومن يكون هؤلاء إلا المسلمون ، يوم يعودون مسلمين حقاً .

المسلم هو الذي يقدس الحق ، ويعيش له ويموت فى سبيله .

فالحق فى اعتقاد المسلم اسم من أسماء الله ، ووصف من أوصاف كتابه ، ونعت من نعوت رسوله ، وقيمة عليا من قيم دينه .

والمسلم باعتباره فرداً ، مُطالَب بأن يعرف الحق ويؤمن به ويدعو إليه ويصبر على ما يلقاه فى سبيله .

والمسلمون - باعتبارهم أمة - مُطالبون أن يقيموا الحق فى الأرض ويتواصوا به ويهدوا إليه : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (١) .

غير أن المسلمين - وا أسفاه - غافلون عن الحق الذى شرفهم الله به وحملهم أمانة تبليغه ونُصرته ، ونشر نوره فى العالمين .

---

(١) سورة العصر كاملة .

فكيف يهدى الناس إلى الحق مَن عمى عنه أو تعامى ، ومَن نسيه أو تناساه ، وفاقد الشيء لا يعطيه ؟!

قال الطالب :

هل أفهم من كلامك أنك يائس من غلبة الحق على الباطل .

قال الشيخ :

لا .. لا ينبغى أن يتسرب إلى فؤاده اليأس : ﴿ إِنَّهُ لا يَايْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١) .

ويقينى أن الحق لا بد أن تقوم له دولة ، وأن ترتفع رايته فى الأرض ، ولا بد أن ينهزم الباطل ويلوذ بالفرار .

وقد بدت بشائر انهزام الباطل فى الغرب ، بشائر كثيرة تبعث على الأمل وتبدد ظلام اليأس .

إن مما يبعث على الأمل أن الاستعمار الذي أغلق كثيراً من النوافذ التى تهب منها نسمات الحرية الفكرية على الشعوب ، قد حمل عصاه ورحل عن أقطار كثيرة ، فأتاح فرصة للأفكار أن تتحرر ، وللعقول أن تبحث .

ويبعث على الأمل أن الإلحاد أخذ يتضاءل ويخفى رأسه ،

---

(١) يوسف : ٨٧

ويخفت صوته ، ولم يعد له حُجَّة ولا سلطان ، وكلما تقدَّم العلم ازداد عدد المؤمنين بالله ، وتناقص عدد المنكرين .

ويبعث على الأمل أن كثيراً من المفكرين المنصفين أخذوا يشكون من طغيان المادية على الحياة ، وطفقوا يبينون مثالب الحضارة المادية ، وخطرها على خصائص الإنسان وتهديدها للقيَم الأصيلة والمُثُل العليا فى الحياة .

ولا بد أن يأتى اليوم الذى يزهق فيه الباطل ، وتزول دولة الضلال أمام عسكر الحق الزاحف المنتصر ، هذا ما ينبىء عنه الواقع ، وما تحس به القلوب النيِّرة ، وما تقضى به سُنَن الله فى الخلق ، وما تنطق به آياته الحكيمة الصادقة : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ؟ (١) ... وصدق الله العظيم .

وهنا حقيقة لا بد أن نذكرها :

وهى أن الحق لا ينتصر وحده ، ولكن سُنَّة الله أن ينصر الحق ، إذا كان له رجال يؤمنون به ويدعون إليه ، ويتجردون له ويعيشون من أجله ، ويموتون فى سبيله . ولهذا قال الله لرسوله : ﴿ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) فصلت : ٥٣ (٢) الأنفال : ٦٢

فإن كان لى من نصيحة أنصحها إليك يا بنى فهى أن تعيش جندياً للحق ، تحيا له وتموت عليه ، تحب فيه وتبغض ، وتصل وتقطع ، وتسالم وتحارب .

قال الفتى :

وهل أجد فى الناس مَن يعيننى على ذلك ؟

قال الشيخ :

إنّ سُنّة الله يا بنى أن يبقى فى الناس مَن يستمسكون بالحق ويدعون إليه ، ولو كثر أهل الباطل ، ليكونوا حُجّة الله على خلقه . وفى القرآن : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (١) .

وفى الحديث : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خَذَلَهُم ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك إلى قيام الساعة » (٢) .

ويقول علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : « لا تخلو الأرض من قائم لله بالحُجّة » .

ورحم الله شوقى إذ يقول :

إنّ الذى خلق الحقيقة علقماً ... لم يُخل من أهل الحقيقة جيلاً

---

(١) الأعراف : ١٨١

(٢) رواه مسلم .

على أن جندى الحق لا يضيره أن يقف فى الميدان وحده ، يصارع الباطل بعدده وعُدَّته ، ويتحدى الضلال بسلطانه وجبروته ، فإن عاش ، عاش بالحق سعيداً ، وإن مات ، مات فى سبيله شهيداً .

وحسبك مثلاً على ذلك من أولى العزم من الرسل شيخ المرسلين نوح عليه السلام الذى ظل ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو قومه إلى الله ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، وإن لم يزدهم دعاؤه إلا فراراً .

وأبو الأنبياء إبراهيم الذى قال لأبيه وقومه : ﴿ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إلا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ (١) .

قال الفتى :

وما قيمة صيحة حق فى صحراء مترامية من الباطل ؟ أليست - كما قيل : صيحة فى واد ، ونفخة فى رماد ؟

قال الشيخ :

إنّ صيحة الحق يا بنى لا تذهب سدى . إنها تترك أثرها فى ضمير الوجود ، وإن لم تسمع لها دوياً ، ولم تلمس لها أثراً مباشراً ، وهى إن تذهب اليوم مع الريح ، فغداً تذهب بالأوتاد ،

---

(١) الزخرف : ٢٦ - ٢٧

وهى إن ضاعت عند الناس فلن تضيع أبداً عند الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ * تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

وهَبْ أن الناس كلهم قد انطمست بصائرهم ، وخُتم على سمعهم وأبصارهم ، وغشى الباطل على قلوبهم ، فلم يعودوا يستجيبون لصيحة الحق ولا لدعوة الخير ، فلا يفتّنَّ ذلك فى عضدك ، ولا يقعدنَّكَ عن واجبك . فإنما عليك البلاغ وعلى الله الحساب ، عليك الدعوة وعلى الله الهداية ، عليك أن تبذر الحب ، وأن ترجو الثمار من الرب . وفى القصة القصيرة التى ذكرها القرآن عن القرية التى كانت حاضرة البحر ، عبرة وعظة : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ (٢) معنى هذا أنه لا فائدة تُرجَى من وعظهم وقد أعرضوا وعاندوا وحقت كلمة الله عليهم ، فماذا قال أولئك ؟ .. ﴿ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٣) لقد عللوا وعظهم لهؤلاء الذين لا خير فيهم بأمرين : الإعذار إلى الله بأداء الواجب ، والرجاء فى أن يهديهم الله ويهدى بعضهم إلى الحق .

---

(١) إبراهيم : ٢٤ - ٢٥ (٢) الأعراف : ١٦٤ (٣) الأعراف : ١٦٤

إنَّ الأمل جزء من دين المسلم ، لأنه ثمرة حُسْن الظن باللّه والثقة بوعده ، واليقين بما عنده .

وهذا شأن الداعين إلى الحق ، يحدوهم دائماً الأمل الحلو ويعمر جوانحهم الرجاء الباسم ، ولا يعرف ظلام اليأس إلى صدورهم سبيلاً : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إلا الضَّالُّونَ ﴾ (١) .

وكلما أدلَّهم الباطل من حولهم ازداد إيمانهم بحاجة الناس إلى النور ، وكلما أمعن الفساد فى الظهور والانتشار امتلأوا يقيناً بضرورة الإصلاح ، وكلما زحف تيار الكفر الصريح أو المقنع ازدادوا قدرة وإصراراً على المقاومة .

وكلما أطبقت عليهم المحن الداجنة أيقنوا أنّ الفَرَج قريب .

إنَّ أحلك ساعات الليل سواداً هى التى تسبق الفجر ، وإن أشد الأيام قسوة هى التى تسبق تباشير النصر ، وما أكثر الأمثلة على ذلك ، وما أكثر الأدلة !

إنَّ الحق الذى أكرمنا اللّه به ، فيه - وحده - فلاحنا وخلاصنا فى أولانا وأخرانا ، وفلاح الإنسانية كلها معنا . وإنما تحتاج

---

(١) الحجر : ٥٦

الإنسانية إلى أمة ترى فيها الحق نماذج بشرية تمشى على الأرض لا كلمات وشعارات تزحم الكتب ، وتتغنى بها الألسنة والأقلام .

يوم ترى الإنسانية الحق ممثلاً فى أمة تعرفه وتحبه وتحرسه وتنشره وتدعو إليه وتضحى فى سبيله . يومها ستسلم لها الزمام ، وتسير خلفها طوعاً أو كرهاً . يومها يهرب الظلام ، وينكمش الباطل ، ويتراجع الشيطان .

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ ، يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ ، لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (١) .

« تمت بحمد الله »

* * *

(١) الروم : ٤ - ٧

رقم الإيداع : ٨٧ / ٢١٩٤
I.S.B.N. X - 093 - 307 - 977

obeikandl.com